

عالمية



روايات

الامبراطورة هيلينا

THE EMPRESS
Helena



الولايات جالدة

المجلد رقم ٣٦٤

الأميراطة وقصاها

تأليف: رولان دوفور

ترجمة: السيد وفال

الجزء الأول : ٢٧٢ بعد الميلاد

كانت القناة غارقة في سحب من الضباب الكثيف ، عندما كان الرجل الوحيد في ذلك المكان ، يتلمس طريقه على الشاطئ الصخري ، وهو يسب ويلعن كلما انزلت قدمه على المسب المبطل ، المتناثر هنا وهناك كفضلات شعير لبيحة بشعة فوق رأس علق اصليح .

وكانت قطرات المطر تتساقط متثاقلة مترددة ، تبث الملل في النفوس وتضاعف من انقياسها في هذا الجو القاتم . ولم يكن في كل ما يحيط بالرجل ما ينعش النفس أو يثيرها . لم يكن هناك غير السأم والرطب . وهذا المطر الذي يتناقل كرجل حرم تقسم به العمر .

ـ يا لها من بلاد لا حياة فيها ولا أمل .

هذا ما كان يردده الرجل وهو يسبح بيده على وجهه :

ـ انها بلاد اقرب ما تكون الى الجحيم .

يا لتلك الفكرة الجنونية التي خرجت به في مثل هذه الساعة ليراقب هذا الشاطئ الطويل .

لقد حفره ووفوس ، التي كان يعرف هذه البلاد حق المعرفة ، بعد أن قدر له أن يقضى ببريطانيا السبع سنوات الاخيرة . وأنه ليؤتي له ، ويرثي لنفسه أيضا لأنه لم يستمع الى نصحه أو يستجيب لتحذيره ، بل وراح يصيح في وجهه :

ـ فليكن . اذا ما كنت تختبئ على قدميك من الليل ، فلتبق في حيث انت بالمعسكر تلعب الترد . لست بحاجة الى تابع . ساذحبي بسفردى .

وهكذا نفذ ما عقد العزم عليه بجهالة . وخرج بصدد أن حياة ووفوس مشقفا عليه . ألا لعنة الله على هذا العشب . لعنة الله على هذه الأمطار . لعنة الله على هذه البلاد كلها . ماذا تجدي رقابة

هذه البقعة من هذا الشاطئ بحق السماء ؟ ما من عاقل يحاول
أن يفوز مثل هذا البلد ، حتى ولو كان الألمان أنفسهم .

إن الخدمة في أي حي من أحياء الراين ، تعد متعة إذا ما قورنت
بالخدمة في مثل هذه الأراضي الرطبة التي يكسوها الضباب - ناهيك
ببلجيكا أو بلاد الغال ، إن الأمر لم يبد له كما هو الآن عندما
وردت الأنباء بتقله إلى الخدمة في شرق بريطانيا وانزعته من بين
خلائه في القليل الرابع عشر بالحرم الإمبراطوري في ميلان .
أو قل بمقر القيسية الإمبراطورية السابق . لقد دأب القواد
على الاستهانة بالأمر منذ أن رحل الإمبراطور إلى الشرق - إلى مصر -
في الحملة التي كانت تقصد تلك الملكة الصغيرة في سوريا ، الملكة
زينوبيا .

ولم يساور الضباط الشبان أي شك فيما عساه أن يكون
الفرض من حملة أورليان . وليعلمها كبار القواد بمسالك الطرق
إلى الشرق والجنوب والرغبة في السيطرة عليها . ولكنهم يعرفون
أن زينوبيا الجميلة هي السبب . كما يعرفون أن أورليان العجوز
خير من يقدر الحسن والجمال .

وهكذا خلا الجو للقلق الرابع عشر في ميلان ، وعث ضباطه
ولهوا ماشاء لهم اللهو والعبث . إلا أن صاحبة كان يدرك في الوقت
نفسه ، أن هذه الحياة وذاك الفراغ لا يحتويان على المجال المتسع
للطموح والآمال الكبير ، وأنه لا سبيل لتحقيق هذه الآمال إلا
بإنهاز الفرصة المواتية . وقد ان هذه الفرصة تنتظره في
بريطانيا ، القائمة على حدود الإمبراطورية الشمالية . وفي الحق
أنه تمادى في آماله هذه حتى علق على نقله إلى هذه البلاد كل
رجاء . .

يا تحية هذه الآمال منذ البداية ! لقد وجه أمامه شرذمة من
مثالة الرجال تطلق على نفسها اسم القليل العشرين ، على رأسهم
قائد ينطلق لسانه بعد الكأس الثالث ، بأنه لم ينقل إلى هذه البلاد
إلا لأنه غير مرغوب فيه في أي مكان آخر ، أنه أوليس كارينوس
الأصلح اليدين الحامل .

- انه الرومانزم يقولى ، الرومانزم • انك لن تنجو منه لى
هذا المناخ اللين • لا عليك لا عليك ••

وكيف يمكن أن يجعل الضابط من هؤلاء جنودا جديرين بحمل
اسم فيسر والانتساب لفيلقه العشرين • انهم خطيط من القالبين
السكرارى والبلجيكيين الذين لا يصلحون لشيء ••• وقلة من الألمان
والاسبان والاعريق • حالة المجندين من كل حطب وصوب •

يا لها من بلاد •• ترى أين يكون هذا الطريق ؟ ان الانسان
لايستطيع فى هذه البقعة أن يتبين شيئا امامه لاكثر من ثملات
ياودات •

- يا الهى ، لقد ضللت الطريق وبأ لها من ظاعرة شلاء بالنسبة
لضابط • المقروض فيه انه يقوم بحراسة الشاطئ ضد ما يحتمل
من غزوا

لقد حذر روفوس من كل هذا •• لن تجد الا صخورا وضبابا
وامطارا •• وتوقفت حيث كان وقد اجلت ثيابه • وأحس بالمياه وقد
تسربت الى قميصه • وتأمل سلاحه قائلا :

- اما كان الأجدر بى أن أتركه بالمسكر ؟

ولكنه لم يفضل ذلك لأنه أراد أن يكون قسوة حسنة لغيره •
يل وما كان روفوس ليقر شيئا من هذا القليل • ترى ماذا هو قائل
عندما يراه على حلم الحال المزربة عند عودته ؟ هذا اذا قدر له
أن يعود •

لقد كان البحر هناك بعيدا على مرمى النظر • وقد يصبح قريبا
منه عندما تنزلق به قنعه ويمسك متهاويا على تلك الصخور صرعا
الى تلك المياه الهادئة التى يسرها أن تكلف هذا الضابط الرومانى •
- قف مكانك •

- لقد سمع هذا الأمر يصدر اليه باللاتية •

- قف حيث أنت • من أنت ؟ •

وفوجئ الضابط الرومانى • وعثت البقعة لسانه •• انه

لم يكن ينتظر شيئاً من ذلك على الإطلاق • إلى مثل هذا المكان
وفي مثل هذه الساعة ؟ انه في اقليم بريطانيا يسط مئات الأميال
عن الأسوار التي تفصلهم عن قبائل الهج من الأعداء •
• من عساه يكون صاحب هذا الصوت ؟ أقطع طريق في مثل
هذا المكان ، المقفر الموحش ؟ وبغزة الجفتى عندما يمس بالخطر ،
وقع درعه بيده اليسرى وأسرع بوضوح يمينه على مقبض سيفه
قائلاً : -

- ومن تكون أنت ؟

- لا عليك من هذا •• اننى فى بلدى ، أما أنت فلا • ولذلك
يصعب عليك أن تجيب على سؤال ؟

كان صاحب الصوت محتشداً ، ولكنه لاحظ انه كان صوتاً رقيقاً
قاصداً ياقما فضحك صاحبنا ججياً :

- ألم يسبق لك أن رأيت ضابطاً رومانيا من قبل ؟

- يا للسخف • أو كان من الممكن أن أتبين رتبته في هذا
الضباب ؟

- لقد كانت لايتنية صاحب الصوت صليمة ، غير أنها كانت
مشوبة بلكة اجنبية • ولم يجد الضابط بدا من أن يجيب قائلاً :
- الضابط كونستانتينوس من الفيلق العشرين •

لم استطرد قائلاً وفي صوته رنة تهكم :

- ومن أنت بحق السماء وأين تختفى من الأنظار ؟

- هانسلا •

لم يزل من بين سحف الضباب طيف انسان غير مسلح ، واقف
اكونستانتينوس على اثر ذلك يحذر خشية أن تزل به قدمه ، والى
بالدفع فوق ظهره • ثم أمسك بكتف غريمه الرقيق قائلاً :

- دعنى أرى من لكون ؟

ووجد نفسه يتغرس في وجه فتاة صغيرة السن ، لا تكاد تتجاوز
السابعة أو الثامنة عشرة من عمرها • بحيلة الوجه تديقه التقاطيع
مشمقة القوام •

وبنا بضحك قائلاً :

- يا فتى العزيزة ، بلوح لى أنك اخترت وقتاً غير ملائم للقاء
فذلك !

- اى فتى ! ارفع يدك من كفى !

وأطامها صافراً . وراح يتأملها متعجباً من أمرها ، لأنه لاحظ
أن ثيابها تختلف عن ثياب فتيات من بلادها ، كما كانت تتزين
ببعض اللؤلؤ الثمين . وقال لها وهو يتفحص قى وجهها :

- لقد قلت لك من أنا ، ألا تقولين لى من أنت ؟ ؟

- ابلين . قد تكون ضابطاً كما قلت لى ، ولكنك لم تصارحنى
بحقيقة امرى !

- وهل تعرفين منى غير ذلك ؟ ؟

- امرف انك لا تعرف اين أنت ، والأنا كنت هنا .

- ولماذا لا اكون هنا ؟

- لأنك نضع قدميك على ارض مقدسة غير مسموح لاحد بأن
يمر بها غير الكهان !

فقط كوستانتينوس جبينه ، اذ كان من المتصارف عليه بين
رجال الجيش الرومانى ، الا تدخلوا فيما يسمى شعائر البلاد وان
يتعدوا من كوائهم . وكان قواده يحرسون على اتباع هذه التعليمات
وتنفذها بكل دقة تفادياً من كل ما يشكل . فقال لها بمسند أن
استعرض كل هذه الامتيازات بذهنه :

- لكن فانت منهم ؟ ؟

- هراء بداعة لست من الكهان ! ولكننى هنا لأفتى ابنة
الملك !

لئن صح هذا ، لازداد الموقف تعقيداً ، فإذا ما صاحبت هذه
الفتاة مستنجدة مستغيثة ، لاناحت لقائده كلرينوس فرصة يحاول
فيها أن يظهر براعته فى معالجة معقدات الأمور . يا لله ! ابنة
الملك ؟- ان الملك الوحيد فى هذه الناحية هو كويللوس الصبور
الذى يقيم فى مكان ما بالقرب من كاميلودينوم !

— ومن هناك يكون والدك يا سيدتي الأميرة ؟ !
— كويل ، أنك تعرفه يكون شك ؟ أن كل من التفتت بوج من
الضباط يعرفونه .

— وهل التفتت بالكثيرين منهم ؟
— أجل . رأيت الكثيرين .

— يبدو لي أنك لا تحبين الضباط الرومانيين .
— أتني لا أحب الرومانيين حقاً . ولكنك يجب ألا تخبر والدي
بأنني مصارحتك بذلك ، لأنه لا يقر مثل هذه الصراحة .
— ما أظن إلا أنه على حق فيما يرى . أنك مخاطرين بهذه
الصراحة .

لاستشاطت غضباً وهي تقول له :

— هراء ما تتحدث به . أن والذي أكثر شجاعة من أي روماني .
ولكنه يؤمن بأنه من الخير عدم مصارحة الناس براك فيهم إذا
ما كان في هذا ما يؤذي شعورهم .

— أنه لشعور جميل منه . وأنت ، إلا موافقته على ذلك لا .
— لا يعني أن أؤذي شعور الناس ، إذا ما اعتقدت أنهم
يستحقون ذلك .

أنها لفئة قوية الشخصية ، ليس في ذلك من شك . ثم بدأت
إلى ذهنه ما فاته له عن قضية هذه الأرض ، فقال لها :
— أرى أنك على حق في أمر واحد على الأقل . لقد ضللت
طريقي في هذا المظلام فعلاً ، وأقسم أنني أشعر بالأسف الشديد
لهذا الخطأ غير المقصود .

فنامت الفتاة بنظرة حائرة خالدة :

— أما وقد اعتزنت بالحقيقة ، واعتزلت عن اقتحامك لهذه
الأرض المقدسة ، فليس أقل من أن أحاولك على الخروج من هنا
الآن .

وقامت ، وبهما متمتا بآيات شكره . لم استفسر منها عن
المسافة بينهما وبين المعسكر . فقالت له :

- مسيرة خمس ساعات على الأكل - انك إن استطعت ان
تواصل سيرك الى هناك الليلة ، انك ذاهب معى الى والدى .

وراح الضابط يقلب الأمر فى ذهنه . أنه يعرف من كويلوس
العجوز خشونة طباعه وقرابة أطواره وميله للعزلة . ان عدد من
التقى بهم من ضباط فرقته لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، بما
فيهم كارينوس . ان هذا العرض الذى بنا منها لا يروقه ، فقد
يستتبع ذلك بعض الأشكال الدبلوماسية وغير القليل من الحرج .
ولكنه مز كفيه فى غير اكتراث ، لأنه لم يجد مقرا من ان يتبعها
الى حيث ارادت له ذلك . ومهما يكن من أمر ، فانه لم يجد فى
ميلان ، حيث البلاط الأمبراطورى ، الذى يؤول فيه كل ما يقوله
لله . ويفعله تأويلا غير ما كان يقصده أو يعنيه .

- فليكن يا سيدنى الأميرة . متى مفصل الى هناك ؟

- بعد نصف ساعة حسب معدل خطواتنا هذه . لو كنت بمفردى
ليلفت القصر فى نصف هذا الوقت .

- انك لا تعاني من ثقل ما أحمل من سلاح

- لم يكن بك حاجة لأن تثقل على نفسك بكل ذلك . انك فى
بلد مسالم . ولكنكم معشر الرومان تحبون أن تدعوا البلاد طولا
وعرضا متباهين بدروعكم وسيوفكم ويثقل خطواتكم ثم راحت
تقلد بصوتها وقع خطوات جيوشهم ، فضحك وهو يقول لها :

- مستعوفين فضل هذه الجيوش عليكم يا طقاتى العزيزة فى
يوم ما ، انها حينما تلبى بأقدامها تحمى الأرض التى تردد على
خطواتها .

- اظن ان قبلكم قد بلغت أرض سوريا الآن ؟

- انها حملة II

اجل . ضد امرأة I واتى لانسابل : هل ترى هى رأيكم ؟

« زينوبيا ؟ » كلا . ما أظنها إلا مملنة انها حرب هجومية .
وهذا شأن من يحاربون جميعا I

واستطاع ان يثبث ابتسامتها الساخرة وهى تقول :

— اتها جذيرة بكل اعجاب . لقد هزمت جيوشا كثيرة فتودعها
الرجال ، اليس كذلك ؟ . وانها لفاعلة ذلك مرة أخرى .
— ما اظنها بقادرة على ان تهزم الامبراطور ، يا طفلى العزيزة .
— سنرى ماذا سيكون من امره . انها امرأة عظيمة . عظيمة
مثل كليوباترة ، عظيمة مثل . . .
لقاطعها قنالا :

— لقد وجدت دروس التاريخ . ولعلك لم تنسى كيف كانت
تهابة هؤلاء النساء ؟
— وكيف كانت نهاية قيصر ؟
واسرعت الخلى غاضبة صحنقة واسرع خلفها محاولا الا تفسيه
من عينيه ، وقد ايقن ان اللحظة ليست ملائمة لهذا النوع من
التفاس .
ومما اثار دهشته ان يصادف فتاة لها مثل هذه الآراء ،
وبالذات في بريطانيا .

— ملا قلت لي من اسمك يا سمو الاميرة ؟
— ايلين . لعلك تذكره في يوم من الايام .
— لن اسماء غايية . ايلين — انه هيلينا عندنا — لعلك سمعت
من قصة هيلينا ، هياينا التي نشر جمالها الموت بين الكثير من
الرجال ؟
— لا اعرف عنها شيئا . ان الجمال ليس كل شيء . . .
ودعني كونستانتينوس ، وهو يتأملها مرة أخرى ، ان تقول
هي ذلك وهي الجميلة الرائعة الحسن .

— ٢ —

بدأ الملك كويل في شعره الاضيق وشكوه الكآ وحاجبية
العزيزتين ، شيئا عموفا رليق الخلفية ، عندما كان جالسا في
قصره ، واقتبلت عليه ابنته وبرفقته كونستانتينوس . وبالمزج

— ١١ —

من انه لم يكن هناك من الخدم من يعلن قدومهما ، الا انه لم يبد على الرجل انه دهش لقدمهما بل استقبلهما قائلا :

— مرحى ، مرحى ، بابنتي وبضيفها ، الا من يحضر كاسا من النبيذ للسيد كونستانتينوس ؟

وحملق الضابط في وجه الملك دهشا وهو يقول له :

— كيف عرفت اسمي يا جلالة الملك ؟ اننا لم يسبق لنا ان نقابلنا .

فضحك الملك قائلا : ان ابنتي اصغر سنا من ان تحاط علما بكل شيء . ان لي وساتلي التي اطلع بها على كل شيء . والى لآسف لما سببه لك طقس بلادى الرديء من ازعاج . اتنى لا املك حياله شيئا .

واقبل الخادم حاملا فارورة النبيذ ، مما اتاح للضابط الرومانى بعض الوقت للتفكير . وجمال بخاطره ما يقوله بعض الناس من هذا الملك وعن شذوذه ، وما يقوله آخرون من خدامه وخبيثه ، ومظاهره بالجنون لاغراض في نفسه . وقرر ان يحتفظ بحكمه الأخير لآخر لحظة . واحتس كاس النبيذ الذى قدم له ، وسمع الملك يستطرد قائلا :

— وكل ما أستطيع أن افعله لأعرضك عما لاقيت من عاء ، ان أمر لك بحمام ساخن من النوع الذى امرف انكم تفضلونه . لكن من مشايبه وعاداته ، وقد يبدو كل منا في عين الآخر شلذا في ناجية ما .

وانصرف الضابط الرومانى بعد ان اخذ له الملك بالانصراف . وتوجه الى حيث اقتسل واستبدل ثيابه الميتلة بما امر به له الملك من لباس جديدة استعدادا لتناول طعام العشاء بناء على دعوة الملك له .



كأن عدد النجاسين الى مائدة الطعام التى مشر . الملك وهيلينا وامراة مسنة كانوا ينادونها بأورجين وفضل لها كونستانتينوس اسم « فيرجينيا » وكانت تبدو كاحدى الوصيفات ، والباقيون رجال

من كبار السن ، بدأ عليهم أنهم من مستشاري الملك وكبار رجال البلاط .

وجلس الضابط الروماني يستمتع بطعامه . وكان الملك قليل الأكل والشرف كثير الكلام ، وقد تطلعت أنظار الجالسين حول المائدة به . أما هيلينا فكانت مطمئنة جانب الصمت . واستطاع كونستانتيوس أن يتأملها مليا ويزداد إعجابا بجمالها . بذات الوجه اللبيق التقاطيع السلو الملامح ، وبهاتين العينين السوداوين بأهدأيهما الرطب ، وبذلك البشرة اللساء الرقيقة ، وبهذا الفم القرمزي الجميل . يحيط بهذا كله إطار من شعرها الأسود الفاحم الذي يتوج رأسها بجبينه الموضاء المشع ذلك .

يحتمل أن تكون هذه الفتاة إسبانية . ويحتمل أن تكون من أصل غالي . بل ولم لا تكون رومانية . هنا ما جال بخاطر الضابط الروماني عندما كان يتأملها . وقطع عليه جبل تفكيره صوت الملك قائلا ، وكأنه قد قرأ أفكاره :

— ان إيلين تبدو فعلا كاحدى فتيات الرومان ، أليس كذلك ؟
ثم ابتسم لها لاحظته على وجه الضابط من علامات الدهشة مستطردا :

— ولكنهما لا تحب الرومان كثيرا ، كما أنها لا تعترفه إلا بالمولودين في هذه الجزيرة .

فضحك كونستانتيوس ضحكة رقيقة خافتة . واصطيفت وجهتنا الفتاة بحمرة الخجل ، ولكنها لم تعقب بشيء . واستطرد الملك موضحا .

— لقد حاولت أن أثبها من رأيها هذا لما فيه من خطأ جسيم . ان الناس لا يجب أن يقاس قدرهم بمقيار واحد . لقد مثل أمامي بالأمر رجل أحطب . وشكنا لى بمرارة من ظلم القدر له . فلما سألته أن يعدد لى ما يشكو منه ، أجاب بأنه يتظلم من تشويهه فطبعه . فطبت خطره قائلا : ولكنك لا تلبو قببعا كرجل أحطيب يا صديقى .

وتعزق كوستانتينوس على متعمده قليلا . ولم يكن واتقا مما
هناك الملك يقوله هذا . ولم يتبين ما اذا كان جادا أو مزاحا .
وواصل الملك حديثه قائلا :

— ان الرومان هم الرومان . وعلى هذا الأساس يجب أن يكون
لقد برنا لهم . ان سمات ايلين فعلا تجعلها قريبة الشبه بالرومان .
واسطاما تسجلت فيما بينى وبين نفسى عما اذا كانت قد قدر لها
أنها ستولد صبيا ، ثم شامت التقادير بخلاف ذلك فى آخر لحظة ؟
فعقب كوستانتينوس على قائلا :

— لو تحقق هذا ، لكنت قد أصبحت من كبار القواد المحاربين
يلدون شك !!

— انها لكذلك فعلا لم تقتل ذلجا منذ اسيومين ؟

قال الملك ذلك وهو يتأمل التبيد فى كأسه .
وهنا تكلمت هيلينا اخيرا :

— كان ذلجا صغيرا . ولكن ذكرا .

قاوما الضابط برأسه مواسا وهو يقول :

— فعلا ، ان انثى الذئب اشد خطرا من الذكر . لقد قيل لى
عنان الذئاب قد أوشكت على الانقراض من هذه البلاد منذ وقد
الرومان عليها !!

فصمت هيلينا على شفقتها . وبدأ أن الملك قد فهم ما يعنيه
الضابط وهو يقول له :

— ان كلامنا يمر بعمر الذئاب . ثم يعفى بنا العمر ليتخطى
هذه المرحلة ، وينتقل بنا الى مرحلة النعمة والسلام . لقد كنت
ذلجا عندما كنت شابا يافعا . لقد مضى هذا العهد وانقضى منذ زمن
طويل . ولكنه لم يكن فى طول عهد روما التى اشترت اليها لى حديثك
يا كوستانتينوس !

— انك لعلى حق فيما تحدثت به يا سيدى الملك . ان روما
لا تريد غير السلام .

لقد دخلت هيلين صحنه :

— مستبر زينتويا كثيرا او سمعت ذلك ؟

تاجايا الضابط الرومانى :

— ان ملكة تدمر شحبة بطالتها التى لم تنقص لها النصح ،
لقد ظفرتنا تقارير مؤكدة عن اعتزامها ان تجعل من مصر اقليما سوريا
ولم يكن هذا الا خطوة مبدئية نحو اقامة امبراطورية تدمر ،
فتدخل الملك قائلًا :

— سوريا ، انها الشرق . ولم تكن يوما معروفة يوم ان كان
الشرق قبله العالم ومصنوع وحيه ان الدنيا تنضج ،
وشعر كونستانتيوس بالحرج ، وراح يصيد ملا كاسمه وهو
يحدث نفسه من حقيقة ما طيه هذا الملك . ولاحظ ان هيلينا
تخطى النظر اليه دون ان تعلق بشئ . .

واستطرد الملك فى حديث طويل من حكام روما وميلان وعلم
ابنائهم بالأساطير التى هى فى عرفة الحق الوحيد . وراح ينص
باللائمة على كل من لا يؤمن بهذه الأساطير وفهم ابنته التى يرجو
لها ان تؤمن بذلك فى يوم من الايام وظل الملك يتكلم ، وظل الضابط
الرومانى يصغى اليه . فى ملل ، حتى غلب النعاس الملك ، وسال
براميه على المائدة واستغرق فى سبات عميق .

وعقبت هيلينا على ذلك قائلة :

— انها قصته المحببة . وهى التى تجلب النعاس الى عينيها
كلما اخطب فى سردها . هل فرغت من تناول طعامك ؟ . اذن
سادمو الخادم ليرسلك الى غرفتك .

ونبهت من مقعدها ، وحلت فريجينيا حذوها . فقال لها
الضابط متسللا :

— وهل يتعين على ان اوى الى فراشى بالأم ؟
— لك ان تفعل ما تشاء . ولكن ، لا يوجد ما تقطعه غير ذلك ؟
لقد انتهى اليوم ؟

— يمكننا ان نجلس لتبادل الحديث .
وكانت هيلينا قد شغلت بصرف الاعيان الثمالية من مجلس
الملك النائم . وبعد ان انتهت من ذلك استدارت له قائلة :

— يمكننا أن نفعل ذلك قبل ، إذا أردت وسأمر بكعداد الجياد اللازمة لك في الصباح . طابت ليلتك .
 — طابت ليلتك يا معجو الأميرة .
 ثم أصدرت أوامرها للخدم بحمل الملك إلى فراشه .

— ٣ —

كان صباحا صحوا منعشا جيلا . واستيقظ كوستانتينوس من رومه ليبحث ملابسه وعبءه سلاحه نظيفة معده بجوار فراشه . وجرىا على مألوف الرومان احضر له جاللو الخادم ، نبيينا معزوجة بالعبء الأبيض . وكانت حركة موقفة ممن أمر بها ، ثم استطع الضابط الروماني أن يتخلص من أسنوها . وحاول أن يتسبب الفضل في ذلك إلى أي من الملك أو ابنته ، غير أن كفة الملك كانت الراجعة لأنه يعرف عن هيلينا كرهها للرومان . ولكن لماذا ؟
 أبداه الوطنية والتعصب القومي . أن بريطانيا كانت اقليما تخاضعا للرومان على مدى ثلاثة قرون ، أن شعورها هذا عجيب حقا .

وتناول طعام الفطاره حيث تناول طعام عشائه بالامس ، ولكنه كان يحلس إلى المائدة في هذا الصباح وحيدا ، الا من جاللو الذي قام على خدمته .

وبعد أن فرغ من طعامه ، نهض مستفسرا من الخادم عن الملك وقبل أن يسمع ردا منه ، سمع وقع اقدام مقلية فر اتجاه القاعة التي كان يتناول الفطاره بها . واقبلت عليه هيلينا قائلة :

— هم حيلعا ، هل أنت مستعد ؟

— أجل . ولكني لم أستأذن من الملك بعد .

— لقد خرج الملك إلى جولته الصباحية . لا عليك من ذلك .
 هيلينا . سأذهب معك لأموذ بالجواد .

— يشرفني ذلك . وخرجا إلى كناء القصر وهو يصحب في

تلقاه من أمر هذه الفتاة ومن أمر أبيها . ووجد أمامه جوادين حج
خير الجياد . قالت له وهي تستل على ظهر جوادها :

— منبلغ المسكر بعد ساعة .

ثم لوت عنان جوادها في مهارة الفارس القدير . وقفز بدوره
الى ظهر جواده ولحق بها . وبعد قليل وصلا الى خفة النهر
ولاحظ ان هيلينا توقفت فجأة . ووقع نظره على كل صغير في
الناحية الاخرى بعيدا من النهر على مرمى البصر . ولم يستطع ان
يرى اكثر من رداء لوزي يعلوه رأس اشيب ، فخل الى انه احد
الرعاة او الفلاحين . ثم اندرك من نظرات الاميرة انه والدها الملك .
وتحركت هيلينا بجوادها لتعبر النهر ، فتبعها بعد ان رفع ذراعه
ومحييا الملك الذي كان مستغرقا فيما كان فيه ولم يرد عليه تحيته .

وجاهد حتى لحق بالاميرة على الضفة الأخرى . قال لها :

— اظن انه والدك . هناك على قمة التل .

— ربما . ما من احد يعرف شيئا عن حركاته .

ولكرت جوادها وانطلقت به عدوا . واندرك من ذلك البيا لا يبغي
مواصلة الحديث في هذا الموضوع .

ووصلا الى المسكر بعد ساعة . وحياء الحارس الواقف عند
الباب الجنوبي . وعرض عليها ان تدخل معه لتستريح وتريح
جوادها . ولكنها امتنعت . وقبل ان يساود دعوته ، أقبل عليها
القاضي كومينتيوس باليوم مسرعا .

— هاتنا أخيرا يا كونستانتينوس . . لقد ظن الجميع ان
نحاذلنا ما قد وقع لك . ما ابدعه من حلات .

قال ذلك وهو يتأمل الاميرة بعينه :

لقطب كونستانتينوس جبينه وهو يقلعه لهيلينا قائلا :

— القاضي كومينتيوس باليوس . الاميرة هيلينا ابنة الملك
الويلدون .

فلتسمر باليوم قائلا :

« بحق جويتر ، أنك لتصرف كيف تفضي وقتك ، تراهيب
الشواطيء البريطانية نهرا والأميرات البريطانية ليلا . يالها
من مهمة . »

قامت مع وجه كونستانتينوس ، ثم أقبل على زميله قائلا :
« لك أكثرت من تناول الخمر . عليك أن تعتذر للأميرة
قورا عما بدر منك ! »

فشد باليوس من قامته قائلا :
« لا حاجة بك لأن تعدتني بهذه اللهجة . أولا لأنك قضيت
وقتا مع هذه . . . »

فأصرع كونستانتينوس بالقفر عن ظهر جواده وقد استبد به
الغضب قائلا :

« هل ستعتذر قورا - أم أرقمك على هذا أرغاما . . .
« هيا نفل وعيلك . يودي لو أعرف كيف سيكون ذلك !
« ستري وستعلم . »

وأصرع كونستانتينوس اليه بمسك بخنقه وقد أعماه الغضب .
ووجهه باليوس لكمة الى وجه كونستانتينوس ولكن هذا لم يشعر
بها . وظل مطبقا بأصابعه على منق قريبه . ولم يرجحه منه إلا
سماع كونستانتينوس لوقع حوافر جواد الأميرة وهي تنطلق :
مبتعدة عنهما . والتفت ليراها منطلقة وقد تهلل شعرها الأسود .
الفاحم على ظهرها تلعب بخصلاته الريح .

ودفع كونستانتينوس الضابط باليوس وهو يلعنه . فترجع هذا
ومسك منق قدمي القائد كلونيموس الذي تصادف مروره في هذه
المنطقة بالليلات .

« يا للمشهود الإخلا . متجئلان أمامي بعد نصف ساعة . ان
لي مكانا لثانا . »

لم استأثر يضرب الأرض بتقديمه غاضبا . وقد تبعه من كان
يرافقه من ضباط .

وتأمل كونستانتينوس غريمه وهو يحاول أن ينهض بمساعدة
اثنين من الجنود قائلا :

« بيثا حساب قورن »

وحده يصنع، تتفادان شروا ، ثم الصرة وهو يحدث نفسه
قائلا :

— لا عجب من أنها تكره الرومان ، لهم أكثر الناس حشدا
وغيا . . .

ولسي في فعله غضبه حقيقة موقفه ، واقتضى منه استعداد له
لهولته بعض الوقت قبل أن يتبين تلك الظروف السيئة التي آلت
بهذا الضابط في طريقه ، ثم يمرر قائمهم في تلك اللحظة بالذات .
واستقبله تابعه روقوس كما تستقبل الأم ولدها المائد إليها
متسخ الثياب مفير الوجه . وعلم الضابط من تأبسه بكل ما كان
في ثيابه من قلق عليه ، وبما قاله القائد عنه من أنه أحسن ضابطه
هاتسم كونستانتينوس قائلا :

— ما أظنه الآن إلا وقد غير رأيه في ! ولكنه طاب خاطرا بما له
من تقدير في نفس قائده ، قد يكون له أثر في تخفيف غضبه
عليه . وأمر تابعه بتنظيف ثيابه استعدادا لثولته أمام قائده .
ولما دخل خباء القائد ، وجد باليوس قد سبقه إلى هناك .
وكان وجهه متفحفا ، وعينه اليمنى متورمة . وطلى أثر وصوله
الحلح كوديو مساعد القائد المستر الفاضل معلنا قدوم الضابطين .
وبعد أن أدبا لثألهما التحية العسكرية ، وقفوا وقفا انتباه
في انتظار أوامره .

وكان القائد كاريونوس حالما إلى مكتبه يوقع بعض الأوراق
ومرت برهة دون أن يسمعها أي التفات . ولما رفع وجهه إليهما
أخيرا ، تبين الضابطان فيه ملامح الضجر والاشمئزاز التي تمتلئ
بها نفسه .

— من أوجب الواجبات لدى الضابط أن يكون مثالا للرجل
المهلب الثقف ، وأنه ليعتني أن أراكم تشاحنان كما يتشاحن
المصارعون المخمورون .

وبإشارة من يده أوقف الضابطين عما كانا بسبيله من إضاح .
ثم وأصل حديثه قائلا :

— كونستانتينوس ، لقد تخلفت عن طابور الصباح . أما هو ؟
هاترك ؟

— لقد خرجت لمراقبة الشاطئ بعد ظهر أمس يا سيدي .
وما هو إلا قليل حتى حاصرتي الضابط وغسلت طريقتي . وأخيراً
تكنت بمساعدة بعضهم من أن أصل إلى قصر الملك كويللوس حيث
لقد كنت الليل .

— وهل قابلت الملك ؟

— أجل يا سيدي ، التقيت به ورحب بي وأكرم وفادتي وفي
الصباح تكرمت ابنته بأعادتي إلى المعسكر . . .

— ابنته ؟ ألفتها التي شاهدتها عند وجودها ؟

— أجل يا سيدي . وما إن وصلنا إلى مدخل المعسكر ، حتى
تقابلنا الضابط باليوس وأعلن الأميرة أمانة . . .
— إن كل ما قلته . . .

— صحت أيها الضابط باليوس .

بهذا قاطع القائد الضابط وقد احتقن وجهه غضباً ثم قال :
— فلتتابع روايتك أيها الضابط كونستانتينوس .

— لقد علق باليوس على قضائي الليل بالقصر بصورة سمجة .
ونفض القائد عن مقعده قائلاً :

— وهل سمعت السيدة ما قاله باليوس ؟

— حرفاً بحرف ، وأنها ظم باللاتينية الجاما لاما ، ولقد نطق بما
تفلق في مواجهتها ؟ .

— وماذا فعلت بعد ذلك ؟

— أمرت باليوس بأن يعتزل السيدة لفرقص . فما كان مني إلا
أن . . . وأنتك لتعرف ما كان بعد ذلك يا سيدي . . .

— وحق سقر ، أتى لا أمرك ما كان وما سيكون مما لا تعرفه
أنت . . . وأنت يا باليوس ، ما هي أقوالك ؟

— أتى ثم أشر صراحة إلى ما يصح السيدة مباشرة .

— إنه لم يقل ذلك . . . لقد ذكر أنك أهنت الأميرة للميحا .

— لم أحمذ ذلك يا سيدى .

— أفهم هذا . لقد أردت أن تتظاهر بظرفك وخفة روحك .
ولكن عصفرك هذا قد يكلف روما غاليا ، لأن الأميرة هيلينا هي الابنة
الوحيدة للملك كوتلوس ، حليف روما ، الذى يأمر بأمره خمسة
عشر ألف مقاتل في ميدان القتال ، وهاتذا يجعل منها هدفا
لتنشوك أيها المهرج الأخرق .

واسقط فى يد بالبوس ، وهبت كونستانتيوس لها سمعه من
الملك ، الذى لم يكن يرى فيه أكثر من اطفالى ، لا حاكما وقائدا
كبير الجيش له خطر .

واستأنف القائد مطبسه ، ومسح يده على جبينه قائلا :

— بالبوس ، متسافر بعد ظهر اليوم الى الشمال ، الى السور
العظيم ، انك لا تصلح للخدمة فى هذه الناحية من البلاد . . . وهناك
فى الشمال ، سيتسع لك المجال لتستعرض خفة روحك ومواهبك
بين الاسكتلنديين ما طاب لك . ولو كنت مكانك ، لالتزمت جانب
الحذر لانهم قوم لا يميلون للدعابة والهنر ، لا حاجة بك لأن
تستأذنى فى السفر . اذكك منك من الآن .

وبعد أن انصرف الضابط بالبوس ، اضطلع القائد فى مقعده
تستفرقا فى تفكير طويل . وظل كونستانتيوس واقفا مكانه لقاء
وأخيرا تحرك القائد فى مقعده ، واتجه بخطه الى مساعده كوريو
قائلا :

— عجيب أن يقع هذا اليوم وفى تلك الظروف . يحسن بنا
أن نصلحه بالأم .

— أجل يا سيدى ، لقد كان توقيت الحادث غير مناسب .
ثم وجه القائد حديثه الى الضابط كونستانتيوس قائلا :

— اجلس أيها الضابط .

— شكرا يا سيدى .

وحجبه القائد بخنجر ثابتة قائلا :

« أن كل ما مستسمة الآن يعتبر من الأسرار العسكرية التي
يستحق الكتمان » هل فهمت ؟

« أجل يا سيدى القائد »

« حسن » لقد بلغتنا أنباء مينة من بلاد الفال »

« أهى ثورة يا سيدى ؟

« وكيف عرفت ذلك ؟

« لقد استنتجت ذلك ، اتنى اعرف بلاد الفال جيدا ، هناك
هوة عميقة الغور بين ملك الأراخى والفلاحين »

ووافق القائد على حذسه ، وألقى إليه بتعليماته التي تقضى
بإسفر فرقة كاملة الى هذه البلاد قمع الثورة ، واستطرد قائلا :

« ومن هنا نترك اتنا فى امس الحاجة لتأمين جانبنا هنا بعد
رحيل هذا العدد الكبير من قواتنا ، قد على ذلك أنفسنا لا ننتظر
وصول امدادات البنا من اى مكان آخر ، هذا وقد قررت أن
أبعث بمندوب الى الملك كويلومس ، يحمل عنى رسالة الىه
مشفوعة ببعض الهدايا ، كم كنت أود أن اعرف اى نوع من
الهدايا أبعث بها اليه »

« ليسكن شيئا مصنوعا من الخشب ، انه يحب الخشب
ويقلبه ، كما علمت من حديثه الطويل ليلة عشائى معه ، انه
لا يفتأ يتحدث من الخشب طوال الليل والنهار كما علمت من
إبنته »

« انه من مقدمات الإله جويشتر »

« تعلمنا يا سيدى »

« الآن فتلعب أنت بالهدية وبالرسالة اليه »

« اتنا يا سيدى ؟

« أجل انت ، ومن تراه يصلح لهذه المهمة غيرك ؟ ولتحضر
القائلى باكرا بعد طابور الصباح »
« سمعا وطاعة يا سيدى »

كان الملك كوبل جالسا على صخرته الحبية الى نفسه الى
ابنته الالكيرة لديه ، وكانت هيلينا جالسة منذ قدميه . تنقطع
بمينها الى ما وراء الجبال البعيدة . هكذا كانا يجلسان ، وقد
وان عليهما صمت مطبق طال عليه الامد .

- اتنى لا اريد الزواج به يا ابنتى -

- لا تريدين ؟

- بلى ، انه متعرج يتفضل على بمسيرة ارادى تطلقا
ومجاملة .

- انتك قضى لانتك لا تستطيعين السيطرة عليه . وانتك ان
استطعت ذلك لاحقرته . انتك لا تعرفين هذا جيدا وانتك تقولين
مالا يتوله قلبك .
ولمضت الملك مداعبا ابنته .

- اتنى اريد ان اصبح كزيتويسا . اتنى لم اخلق لاجلس فى
مقر دارى ، اقطع الوقت فى الحديث مع الخدم واتحكم فى تواقه
الامور .

وابتسم الملك مشفقا مما يسمعه فاستطردت ابنة :

- مهما يكن من امر ، فاننى لن اتزوج كونستانتينوس . انه
يساملنى كطفلة مع انه هو الطفل . كما انه لا يؤمن بالهته ولا باى
قوى آخر .

- كفى عن مثل هذا الحديث ، حتى تستطيعين ان تسمعين
حديث قلبك . انه لم يتقطع عن الحضور طوال هذه الاسابيع .

- عملا بالهدايا ليأمرؤا قلبك ، لانهم فى حاجة اليك يا والدى
هؤلاء القوم لا يفكرون الا فى اطعامهم وفى امراطوريتهم فى روماء
لقد سارحتهم بالا بضيع وقته سدى فى زيارات المجاملة هذه .
ولماتك لا تعرف انه سيكون مسئولا من قيادة القبلق فى قيسريه
لكابونوس . ولا يجلو بالقائد ان يترك مقر قيادته .

وتظاهر الملك بأنه لم يسمع شيئا مما قالته . وقال لها :
- لقد أبلغت بأن هناك بعض المتاعب في إحدى قرى الجنوب .
وسأوجه لاستطلاع الأمر وسأمود في الليل . أتركيني الآن . ولقد
أصدرت أوامري لجبالو بأعداد وليمة رسمية حددت لها بمقدار
القروب بساعة !

تأملت والدعا دهشة . أن الولايم الرسمية لها وشيئها
الخاص وودت لو سألته عن مناجبة إقامتها ، وعن سيدي إليها
ولكنها لاحظت أن والدها قد استغرق في نومه كعادته بعد أن تددت
رأسه على صدره !

وتنهضت في سكون وهي تتحاشى إزعاجه وانحنى في رفق
لتودع شعره اللصيق قبلة حانية . ومشت بين الأشجار آمنة
مطمئنة على سلامته ، حتى من اللذيق الضاربة ، وتوقفت بعد
قليل ، لتلقى نظرة على والدها في ردائه الأبيض ورأسه المائل
يتلجه الأبيض . وجلل بخاطرهما أن والدها قد تقدم به العمر
واقتراب من نهاية الحياة ، فجمعت لهذا الغلظ ولربحت . أنها
لا تريد له أن يموت . أنها في أشد الحاجة إليه ، أن حياته
بالنسبة إليها معنى كثيرا . أنها لا تستطيع أن تتخلى نفسها
بإقتراب هذه اللحظة الزهيدة . أنها لا تستطيع أن تتخلى نفسها
بإقتراب هذه اللحظة الزهيدة .

ولا بلغت حدود القاية واشرفت على الطريق الرئيس الممتد
على جانب النهر ، وقع نظرها على فارس يسير من بعيد . أنه
هو . . .

والتي على مقربة من القصر . ولاحظت ، وهي تسرع من
ظلم جواده ، أنه منغل مبتهيج كمن يحمل أثداء حسنة ، أو كمن
يتربص شيئا من هذا القبيل .

- ماذا يشغلك عن مهم وظيفتك يا سيدي الضابط ؟
- هيلينا ! لا تنفهي بشيء . . . أنك على حق فيما تقولين .
أن تأتري على لا يتكرر ، وأنه ليؤداد يوما بعد يوم . لقد أصبحت
تخفى الشاغل .



ولم تعقب بتي .
ومندبا بلقا باب القصر ، مهد بجواده الى احد الخـنـم لـج
صالحا :

— ابن والدك ؟

— ذهب لزيارة قرية في الحي الجنوبي ، لمراسلة أهلها بسميـو
ما حل بهم نتيجة للمصفة .

— انه بمثابة الأب لشعبه ؟ ياله من ملك حكيم وحكيم !

وخلع خوذته وهما يدلفان من باب القصر الخرجي ، فاطرد
جمالها ردة صنعتها ، وعظمت منه انها مصنوعة في بلد غير روما ،
وتطرق بهما الحديث حتى علمتا منه ان هذه سلاحه كلها مصنوعة
في اسبانيا . فقالت له متهمكة :

— وماذا بقي بعد ذلك لروما ؟ روما مقر الامبراطورية بجلالة
قدراتها . انظر اليها نحن الشعب الفقير التابع لكم — الشعب الهجين
في أعينكم — اننا نعيش على ارضنا ونعتمد عليها — ونصنع
اصلحتنا بأيدينا . اتنا لا تكلف غيرنا بالعمل او بالقتال نسيابة مثا
كما تفعلون انتم في روما .

— لماذا تكرهين روما الى هذا الحد يا هيلينا ؟ لطالما وددت ان
أوجه إليك هذا السؤال . وعلى أي أساس تيتين حكمتك هذا ؟
— انا لا اكراه روما . كل ما في الامر اني أحب بلاي . ان
روما لا تعني شيئا بالنسبة لي .

— ومع ذلك فان هذه الأرض التي تقفين عليها هي جزء من
الامبراطورية الرومانية .
وكان يقول ذلك ليغرها .

— هكذا ؟ ان فوله أرض رومانية ؟ وصلت من قائمتها كل
وكفة لحد فاضية .

— اجل ، ام لملك تريدان ان نقول اننا نقف على ارض مقدسة
لكما حدث مندا التقينا لأول مرة ؟

— اننا نتبع روما اسما ، ولكنك لم تفهم ولن تفهم . ان كل
بقعة من هذه البلاد بمثابة لرض مقدسة بالنسبة لنا ، ان كل ما فيها

من هؤلاء ومنه وأرضي ؟ يعتزج بأرواحنا . لقد حكمت هذه البلاد
 جيلا بعد جيل بيد من حديد . ولكن زمامها سيفلت من أيديكم في
 يوم ما ، كما يفلت زمام الخيل من يد الفارس الرديء . إن كل من
 يقف على هذه البلاد من الخارج لا يمر له من أحد صيرين ، فاما
 أن يلوي في شعبها ويفقد ذاته ، ولما أن يلقى به خارجا ليعود من
 حيث أتى . أما أنتم معشر الرومان . فلکم من كبرياتكم حصنا
 يعول دون امتزاجكم بالشعب . ولم يبق هناك إلا البديل الآخر
 ألا وهو أن يلقى بكم خارج هذه البلاد .

— من ذا الذي لفتك كل هذا الهراء ؟

— انه والذي الذي يقبوله في طول البلاد وعرضها بالحكيم .
 أنكم أول من وطأت أقدامهم هذه البلاد من الفرياء عنوة . حتى
 اللصوص والقرصان من دول أخرى ، لم يتخطوا حدود مواصلنا
 أنكم أول من اجترأ على معاملتنا هكذا — التايح والتبوع — وسيأتي
 بعدكم آخرون ، كما يتنبأ بهذا والذي ولكنكم بعد حين سينفصرون
 تقي شعبنا جيلا بعد جيل . وستنتج من هذا التخليط شعب قوى
 سيكون له شأنه . اتنا في بداية الطريق ، اما أنتم فقفوا بلفتم
 متناهيا .

ولم يع شيئا مما قالت . لقد كان مأخوذا بروعة حديثها الذي
 ازداد بفضبها جاذبية وأسرا . ان ما تقوله لا يعنيه في كثير أو في
 قليل ، مادامت تغير امامه هكذا جميلة فائنة .

— انك رائمة . انك الجمال كله . ان الحسن قد تجسد في
 غضبك . وابتدع من هذا كله لنتي ليريد الزواج منك .
 فخطت الى الخلف وهي تقول له :

— ماذا هناك ؟ القبيل كوتستاتيوس يحللة قلده . يتنازل
 ويطلب الزواج من بريطانية . أو كرضب في الزواج مني أو من
 جيش والذي ؟ لقد سمعت من القلائل في بلاد الفال فضلا عما
 هنالك في سوريا من قتال .

— لا تأسي على روما ، أنها بنخر يا صهر الأميرة ، لقد وركبت
الإنبياء هذا الصباح ، لقد سقطت تلمر وأصبحت الملكة زينوبيا
أسيرة للامبراطور بعد أن عفا عنها ، وسيعود بها بعد بضعة
أشهر إلى المدينة الخالدة ، ليراها الشعب ضمن عوكيه .

— زينوبيا أسيرة ؟ !

ولما كنت على نفسها ، فاسرع إليها بمنزلها بأزراعيه ، ودلتني
وجهها في ذراعها ، ثم رفعت إليه يميني مفروقتين بالدموع
وشفتين تتحركان بما لم يسمع ، ولم يستطع أن يقاوم دعوتيهما
فأسكتتهما يقبلة أودعها كل ما يجيش في صدره وينفض به قلبه »

الجزء الثاني : ٢٧٤ - ٢٨٦ جزء الأول

كان الطبيب الاغريقي يمدى على اطراف اصابعه في غرفتها حتى استقر الى جانب فراشها ، وكانت هيلينا تحس بوجوده ، ولكنها لم تحرك ساكنا ، وهي مستلقية في فراشها مغمضة العينين مسترخية في سكون . . وكانت هيلينا قد شعرت بنفور من هذا الطبيب منذ ان وقع نظرها عليه ، وصارحت زوجها كونستانتينوس بذلك . ولكنه اصر على ان يقوم الطبيب باسيليوس بهذه المهمة لشجرة التي طبقت الافاق ، حتى انه كان يستلم الى كل البلاد للاشراف على عمليات الوضع .

وبدا الطبيب يراقب حالتها ويتحسس نبضها ، ولما فتحت عينها حاول ان يهدئ روعها ويطلبها بان تعمل من ناحيتها على مساعدته في مومته ، بعد ان فقدت الكثير من حيوتها في الثلاثة ايام الاخيرة !

ثم نوحض مفادرا الغرفة في سكون . ولما التقى بكونستانتينوس تخرج الغرفة ، كانت الانسامة التي على وجهه مقتمبة وهو يقول له مطمئنا :

- سيكون كل شئ على ما يرام . لقد صادفتني حالات أشد من هذا بكثير . . قليل من الهدوء باسبغ الضابط ، كلا لا تدخل الآن . فلتركيا تستريح قليلا حتى تستعيد قواها . . ثم تركه الطبيب وانصرف الى حله ، وعاد كونستانتينوس الى غرفة مكتبه .

وجلس وحيدا ، مع افكاره ومع آماله وامانيه . . جلس يستعرض الى اطراف من طموحه الفرص التي قد تمنح له أو قد توابيه حتى لا يظل ضابطا هاديا فحسب . لم عرج في تفكيره على هذا الولود الذي ينتظر قدومه ، ولمنى ان يكون ذكرا . وراح يستعيد ما كانت

عليه هيلينا من قبل ؟ وما حلت اليه بعد أن أوشكت أن تصح
أما - أنه سيصبح أباً ، وما هم المهم يقررعون ويصلون من أجل
سيدتهم .

إن لكل منهم طريقته الخاصة في صلاته الخاصة التي يشرع
اليها . عجبا ! . ولكل طوقسه وهكذا تمتد العبادات والخلاص
واحد . أنه ليذكر أن هيلينا لم يسبق لها أن تحدثت اليه في شيء
من هذا القبيل . وهذا أفضل . أفضل بكثير مما كانت تتوكل به
زوجة قائد كارونبوس من الأديان ، حتى أنهم تسبوا اليها في وقتها
ما أنها أكثر ميلا نحو دين المسيح الذي صلبه اليهود في طبرية
أو في الجليل ؟ . أنه لا يعرف شيئا عن حقيقة الاسم - أو المكان -
ولقد كانت لهيلينا معتقداتها الخاصة في كل ما يتعلق بالعبادات
والأديان . وهي لم تكن تؤمن إلا باللعن وبكل ما يقوله والنساء
أو يصدر عنه من حكم . حتى في مراسم عقد قرانهما ، فإنها لم
تجد غير ما رتبه والنساء من دعاء وتراثيم .

أنه لا يستطيع أن يؤمن بشيء غير القدر ، أو قل هذه اليد التي
توسع خيوط المصير لكل البشر . ومهما يكن من أمر ذلك كله - فإنه
لا يعنيه في هذه اللحظة بالذات إلا أن يرزق بولد . ولد قوى سليم
يملأه في مكانته وفي مركزه الضخم الذي يعد نفسه له . وليكن
ذلك بعد ثلاثين عاما أو أربعين ، فلا داعي للعجلة . كل شيء مرهون
بوقته .

واقبلت عليه فرجينيا منتقمة الوحة تسأل عن الطبيب
باسيليوس وتظهره بأن الآم الوضع قد بدأت . فتنهض سررا إلى
غرفة زوجته ليرأها مستقلة في فراشها وقد اختلج وجهها ألما
وانقبضت أصابع يديها من شدة ما تقاسيه . فقالت له بصوت
يحاف لا يبرأ فيه :

- لم يحن الوقت بعد . . أن أمانى سلمات وسلمات .

ووجد كونستانتيوس نفسه يرسل كلاما لم يكن ليهم له معنى
حتى أقبل الطبيب واضطلع بهدته . ولاحظ كونستانتيوس أن
الرجل كان قلقا مضطربا .

واتصف الليل دون أن يتمكن الطبيب من التوفيق في مهمته .
 واستبد القلق بالزوج وجميع الحاضرين . وهر كونستانتيوس
 الطبيب مهددا متومنا ، وعاود هذا جهوده متومسلا لهيلينا أن
 تساعد . واستجمع كل ما استطاعت من قوة . واستمر الحال
 كذلك حتى الساعة الرابعة صباحا دون جدوى . وركع الزوج إلى
 بجانب فراش زوجته يتضرع ويبذل إلى قوى القدر الخفية ، ووقف
 الحاضرون من الخدم يصلون من أجل سيدتهم ، التي كانت مستلقية
 على فراشها لا حراك بها ، حتى أنها لم تسمع نداء زوجها المختلف
 لكي تزور إليه بعينها على الأقل .

ولفاجه سمع الحاضرون هزيم الرعد داويا بهز أوكلان المكان .
 وبالرغم من ذلك ، لم تتحرك الأميرة هيلينا في فراشها ولم يبد
 منها ما يدل على أنها تسمع وهي .

ثم تكرر هزيم الرعد وهطلت الأمطار واكفهر الجو . وفي فترة
 سكون هنأت فيها أصوات الطبيعة الفاضية ، بلغت آذان المجتمعين
 حول الفراش أصوات حوافر الخيل مقبلة في اتجاه القصر . وأقبل
 أحد الخدم مسرعا ليعلن قدوم زائر عظيم . وما كاد ينتهي الخادم
 من قوله ، حتى دخل الفرقة الملك الوالد الذي أتجه إلى فراش
 ابنته وتاملها ، ثم استدار لساير الحاضرين وسألهم في صوت
 أمبراطوري أمر أن ينسكروا مع ابنته بفردوها . ولما حاول
 كونستانتيوس أن يتكلم ، أمره الملك بأن يطيعه وينسحب مع الطبيب
 والآخرين . فصدع بما أمر ، وانحنى محييا وغادر الفرقة مع
 الطبيب .

وما أن خلا له الجو ، حتى أتجه الملك كزير إلى فراش هيلينا .
 وبمال عليها يسمح بيده على جبينها وعلى عينيها . ففتحت عينيها
 واستعادت وعيها ، وما أن رأت والدها يحنو عليها ، حتى ابتسمت
 له وبادلها ابتسامتها قتلا :

« هيا اتفضي يا بيتي ! »

« لا أستطيع يا أبتي ، لا أستطيع ! »

« قلت لك ، اتفضي ! »

فنهضت دون أن يسلمها في ذلك . وأمرها بأن تتقدم إلى حيث يقف ، وكانت كلما تقدمت نحوه خطوة ثراء يستمد منها أخرى ، فالتأتأت الموجه قائلة :

— ساقاي يا أبتاه ، ساقاي .. انتهى ...

— تقلمي نحوي ، تقلمي .

فتمسكت على وعن حتى بلغت المنضدة الكبيرة في الطرف الآخر من العجوة .

والتي الملك بكل ما على المنضدة أرضا ، وأمرها بأن تستلقي عليها . فاطلعتها ، ولكنه اضطر أن يماونها في هذه المرة . وبعد أن مر بيده على صدرها مبلوكا إياها شعرت براحة لم تشعر بها من قبل أيام رليال . ثم أمرها بأن تنهض واقفة على المنضدة . تصدعت بما أمرت به . ولكنها ترنحت قليلا ، وماودتها آلامها ، وشعرت بأن ساقها لا تقربان على حبلها . وسمعت بأمرها بأن تتثنى إلى الخلف ، بعد أن دار دورة كاملة وأصبح خلفها . ولما لاحظ ترددها ، استرحها على أن تلي بثقلها كله على ذراعيه مهدئا من روعها . ثم دفعها إلى الأمام بقوة وعنف لم تستطع معها أن تكتم صرختها التي أطلقتها مدوية ، جمد لها الدم في عروق المترقبين لحظة الخلاص في الخارج . واستدار بعد ذلك ليصبح في مواجهتها وصرخ فيها قائلا :

— تمالكي نفسك يا إيلين ، انك من دم ملكي . هيا اقفي !

فماضت أرضية العجوة ، وخيل إليها أنها بمسحة مسحية الفوارق اقتدارت بها رأسها ورفعت ذراعها في الهواء ضاحكة ، وألقت بتففسها بين ذراعيه . ولكنه كان قد تخطى عنها في اللحظة المناسبة ليتركمها لتسقط على الأرض بكل ثقلها على قدميها ، وصرخت من لتلة الألم ، وسمعت صرخة أخرى طفت على صرختها ، صرخة الفزع والنصر صاعدة من والدها ، وهو يصيح قائلا :

— ادخلوا جميعا !

لم تفلت وعيها بعد ذلك ولم تدر من أمر نفسها شيئا .

ولما استعادت وعيها ، رأت أول ما رأت وجه كونستانتيوس
حائبا عليها في ترقب وقلق . ولكنها وجلت نفسها لتحول منه
بقوة سحرية الى الطفل الرائد في مهده بجوارها . ووقع نظرها
بعد ذلك على والدها الملك جالسا في الناحية الأخرى من المهد يتأمل
الطفل في سكون وصمت . وكانت أشعة الشمس قد بدأت تنسحب
الى الغرفة حاملة معها تباشير الصباح .

— أريد أن أرى ولى : الى يولى ؟

فقام والدها بحمل الطفل بين لفافاته في حنية خائفة ، وهو
يجب في نفسه من أتما حدثت جنسه دون أن يخبرها بهذا أحد ؟
ثم نال لها وهو يودعه الى جوارها يرفق :

— لقد ولد مع شروق الشمس . أى اسم ستختارين له ؟

فسارع كونستانتيوس بالإجابة قائلا :

— قسطنطين !

فضحك الملك مضجعا :

— قسطنطين ، كونستانتيوس الصغير . جميل أن يسمى الولد

باسم مشتق من اسم والده ، وإن كنت أرى أنه سيكون أعظم شانا
من والده ؟

ولما هم الضابط الروماني بالتعليق على ما سمع ، وضمت
هيلينا يدها الرقيقة على ذراعه وهي تحلق النظر في وجه والدها
وقد تملقت عينها بعينه . واستطرد الملك قائلا :

— أنه سيملك كل أرض تعرفها قدماء . أنه سيكون مصير

غبطة لوالديه وموت لابنه ، وأنه سيعيش حتى يرى شجرة الحياة !

— ٢ —

— أرفع ذراعك الى أعلى — أعلى من هذا المستوى — أعلى ؟

هكذا يجب أن يكون ارتفاع الذراع — العنان فقط هما اللذان يجب
أن تكونا أعلى مستوى من حافة ذراعك ، حتى إذا ما أمطرك العالم

بسيما ان تفتكر ارفع ذوعك - ولن يكون عليك حينئذ الا ان
تحتي واسك قليلا فتسلم هكذا - ارايت ؟
بدلك كان يصدر الضابط تعليماته الى الصبي .
- انتي ان افعل هذا ابدا .

قالها الصبي غاضبا :-

- ان العدو حينئذ انتي اخشاه ؟

- انتي القنك خير اساليب القتل ؟

- اذا كنت تعتقد ذلك فكن مستعدا ، لانني سأهاجمك !

- ان العدو لا يعلن خصمه بأنه سيهاجمه ، انه يجب ان ياخذه
على حرة !

ولم يترك الضابط فرصة للصبي الغاضب الذي اندفع نحوه
شاهرا سلاحه ، وعالجه برفق حتى تهووه . وحاول الصبي ان
يميد الكرة بعد ان سمح له الضابط بالتمسك سلاحه قائلا :-
- من يا ترى علمك هذه الاساليب غير السليمة يا قسطنطين ؟
لست انا على الاكل - فلنقاتل كروماني لا كهجى !

وكان يجلس في الشرفة المطلة على الساحة شخصان يتأملان
كل ما يجري في سكون وامجاب . وعلق كونستانتينوس على ذلك
كالتلا لزوجته :

- ان فاسيليوس يعرف واجبه خير لمعرفة !

- اعرف هذا .. ان ما يقلقني هو قسطنطين واتدافعه ، ان
حدة طباعه ستسبب له المتاعب في يوم ما .. ها هو ذا يعود
لهاجمة الضابط !

واجتمع كونستانتينوس راضيا لقرار الامن .. ان اخبر
فاسيليوس ليكون مديرا عسكريا لولده ؛ اخبره بعد ان ابنت هيلينا
وكبتها في ان ينشأ ولدها نشأة عسكرية . يالها من ام مثالية ..
انها اكبر رومانية من كثيرات الامهات الرومانيات أصلا .

ودار القتال بين الصبي وبين معلمه العسكري حتى انتهى
بهرجة الاول واصلته بجرح دام . فتعكرت امه في نفسها قلقا
فدون ان تغرق لما شاهدته ، وقال الابن :

— انه مستفيد من ذلك . لقد لقنه الضابط درسا !
— انه لا يئى . انه جدير بان يكون ابن القائد كونستانتينوس
واقبل استاذ الصبي ، الاغريقى ، يسمى ليؤكد أهمية دوره
فى تربية الصبي قائلا :

— سيدى . ان قسطنطين قد تأخر عن دروس الآداب . وها
هو ذا قد جرح ، فكيف يستطيع بعد ذلك ان يمتد دروسه ؟

فاجابه القائد كونستانتينوس بان تدريبات الصبي العسكرية
أكثر أهمية من دروس الآداب ، واتصفت اليه زوجته فى هذا . .
والبح الاستاذ الإغريقى موضحا انه مسئول عن تعليم الصبي وأنه
بحاجة لتأيد والده ، كما ان صبيا فى الثالثة عشرة من عمره
لا يجب ان يترك هكذا لنزواته العسكرية .
وصرفت هيلينا الفيلسوف الاغريقى من حضرتها قائلة :

— لست احب لابنى ان يصبح عالما . . اننى أريده ان يصبح
جنديا كوالده !

وبعد برهة وحيزة اكل الصبي وعلمه العسكري على الوجين
الجالسين فى الشرفة . وبعد ان أدى الضابط التحية لقائده قال:
— لقد انتهى تدريب اليوم يا سيدى .
فلوما كونستانتينوس برأيه قائلا :

— لقد رأيت بنفسى تدريب اليوم ، وأنا جد مقتنع به راض
منه . اذهب الى روفوس بالطبخ وقل له انك موافق من لى .
وكان روفوس ، المراسلة السابق لكونستانتينوس ، قد أصبح
مديرا لمنزله مستولا عنه .

سالت هيلينا ولدها قائلة :

— هل أنت متصب يا قسطنطين ؟
— قليلا ، ليس الى هذا الحد الذى تصورين .

— اذا لم يكن بك رغبة فى دراسة الآداب اليوم ، فلا ضرر من
هذا . ويمكنك ان تصبحا فى نزعتنا .
واقبل الصبي على والدته معانقا وهو يقول :

— أنت تستطيعين دائما ان تفرقي افكارى يا اماء ؟

فتعبد والده ضاحكا :

— وانتهى معنى لكذلك !

وفى طريقهم الى المنزل ، قابلهم رئيس الخدم لاهث الانفاس
ممتقع الوجه . فقال له كونستانتيوس :

مالا بك يا رجل ؟ هل انت مريض ؟

— ميصوت امبراطورى يا سيدى . الحاكم اليكتوس قادم
لقابلتك !

فتعقد كونستانتيوس ما بين حلقيه غير ان تبرزت صوته لم
ثم عجا يختلج فى نفسه .

— نعمه يدخل .

وبعد ان خرج رئيس الخدم تبادل كل من الزوج والزوجة
نظرة خاطفة .

قال كونستانتيوس على اثرها :

— ان مثل هذه المقابلة كانت تعنى مالايسر فى الماضى . اما فى
عهد دقلديانوس فهى شىء آخر . . . قلنا فى عهد نيرون او . . .

— هل لك معرفة بالمبعوث ؟

— اليكتوس . . لا اظن . اعتقد اننى مضطر للتخلف هنا .

الهيى انت مع قسطنطين . لعله حضر فى طلب المزيد من القوات .

— ولماذا لا اتقى معك ؟

— كلا . لا مانع من استقبالك له ثم تصرفين بعد ذلك .

اعتقد ان هذا افضل !

وعاد رئيس الخدم يتبعه المبعوث الاسبراطورى . وكان

اليكتوس رجلا طويل القامة مريض التكوين ، يحمل بينهما راسا

قريبة الشبه برأس الطيور الجارحة . وشعرت هيلينا بالنفور منه

بمجرد ان وقع نظرها عليه . وقالت بعد تبادل عبارات المجاملة :

— ارجو ان تاذن لى ولولدى بالانصراف حتى تتفرغا لما قمتم

من اجله .

وانحنى المبعوث تحية واحراما . وغادرت القاعة تبعها

ولدها قسطنطين .

وبعد أن خلت القاعة الاثنتان ، سلم المبعوث الرسالة
 الامبراطورية لكونستانتينوس الذي ظل واقفا حتى انتهى من
 تلاوتها كما تفضي بذلك التقاليد . وظل المبعوث يحذجه بنظره
 لعله يتبين من ملامح وجهه رد فعل الرسالة في نفسه . وكانت
 الرسالة بمثابة منشور دوري من الامبراطور قلدريانوس الى قواده
 وجنوده وحكام الاقاليم ، يتضمن ارادة الامبراطور التي تنزلت
 بالانعام على القيصر مكسيماتوس بلقب امبراطور تحت اسم
 أغسطس ، وانه سيصبح الحاكم الأعلى لاطاليا واقرقيا واسبانيا
 وفرنسا (بلاد الغال) وبريطانيا ، بينما يحتفظ قلدريانوس بحكمه
 لبلاد تركيا ومصر وآسيا . وعلى كل القواد والقوات في البسلة
 التي أصبحت تحت سيطرة ماكسيماتوس ان يقسموا بيمين الولاء
 لامبراطورهم الجديد .

وبعد أن فرغ كونستانتينوس من قراءة الخطاب ، قال بصوت
 هادي :

« يا لها من اتباه - لن جلالة الامبراطور قد حذا حذو ماركوس
 انطونيوس (مارك انطون) - ان في ذلك الخير كل الخير
 للامبراطورية .
 - هذا صحيح .

« وانه اختار لهذا خير من يصلح لهذا المنصب السامي .
 - اجل . اجل .

« ساعدوا أوامري الى قواتي بالتجمع لهذه المناسبة . واظن
 انك ترغب في حضور هذا الاستعراض . ما لم تحصل واجباتك
 دون ذلك ! »

« قبل ان أبلغك بقراي ، أحب ان أسلمك رسالة امبراطورية
 أخرى . »

« رسالة أخرى ؟ »

« اليك الرسالة . »

وانحنى مرة أخرى وهو يتسلم الرسالة الثانية . واسرع بنفسه
 متلهفا لكي يعرف ما بها . وقراها ليجد انها من ماكسيماتوس .
 امبراطوره الجديد الذي لم يضيع وقتا في مباشرة مهام منصبه

السامي . وتضمنت الرسالة دعوته لحضور مؤتمره في روما للتشاور في امور عاجله . وترك له الامبراطور اختيار من يتوب عنه في قيادة قواته أثناء غيابيه .

— متى سترحل الى روما ؟

بهذا سألته المبعوث بمجرد ان طوى القائد كونستانتينوس الرسالة ، دلالة على انه فرغ من تلاوتها .

بمجرد اداء القوات للقسم الجديد ، كما اعتقد .

— ان جلالة الامبراطور لن يرضى عن أى تأخير . يحسن بك

ان تعود على ظهر السفينة « تيتان » انها من السفن السريعة .

— فليكن . سارحل غدا وأرجو أن تقبل ضيافتي الليلة .

— شكرا . ترى من سيحل محلك في غيابك ؟

— الضابط جايوس فاليريوس .

— وهل يستطيع أن يقود هذا العدد الكبير من الضباط

بالجنود ؟

— لو لم يكن كذلك لا احترته لهذه المأمورية !

— هل تصح بتقديمه الى ؟

— ستراه الليلة ساعة تناول العشاء .

— ٣ —

« ان مراسم الاحتفال الجديد » ، بهذا بدأ كبير أمناء الامبراطورية

أعداد تعليماته بعصية ، الاحتفال الذي سيشرفه صاحبها بالجلالة

الامبراطوران فللديانوس وماكسيمانيوس .

— اطال الله بقاءهما وأيد حكمهما . ستكون كما يلى :

ستدخل القاعة الداخلية في أعقابى ، حيث أقدمك الى رئيس

الحرس الامبراطورى . ثم ستتقل بعد ذلك الى القاعة المستديرة

حيث تجد غيرنا من الزوار . وبعد ذلك نرتقى الممرج الى غرفة

الاجتماع ، مامو اسمك الذى ذكرته لى ؟

— القائد كونستانتينوس .

— صحيح ، صحيح .. ان اسمك مدون هنا .

لي نشر كبير الأمناء بين يديه صفحة بها مئات الأسماء :

.. ان مكاتك بين القائد باسباتيوس والقائد تيرنتيوس .
ومستقروم . . .

.. أولوس تيرنتيوس ؟ ، من الفيلق الرابع عشر ؟
.. اجل ، اجل ، ولا أحب ان يفاطعني أحد .. ان مراسم هذا
الاحتفال معقدة الى حد ما ، ولدى الكثير مما يجب ان أقوم به . .
ماذا كنت افعل ؟ ، آه ، مستقروم يدخل قلعة الاجتماع في صفه
واحد حيث نجد كبير الياوران الذي سيتولى تقديم الوافدين بعضهم
الى بعض . واحب ان ألقت نظرك الى نقطة في غاية الأهمية . .
فيجب ان يشرف جلالة الامبراطور قلعة الاجتماع ، يجب ان
تكتب على الأرض ساجدا !

ولم يصدق كونستانتيوس ما سمعته اذناه . او يسجد قواد
الرومان كالارقاء والبيد ؟ . ماذا تقول بروما والى اى متحلف
تتحلف ؟ ! لقد قيل الكثير من فساد جهاز الحكم في روما وتناقل
الضباط في دوائر الجيش غير القليل من وقائع الرشوة والانتحال .
ولكن احدا ما لم يكن يتصور ان يبلغ الاسفاف بهؤلاء الابطارة هذا
الحد الذي يبذل قواد الجيش وضباطه الكبار ، فيطلب منهم ان
يسجدوا ويكبوا بجباههم على الأرض .

ولم يمر كونستانتيوس ، كبير الامناء اتبهاها فيما كان يتلو
من أوامر أخرى ، وقد ضاق ذرها بما يسمع :

.. اننى لن استطيع ان اصى كل ذلك في درس واحد . لقد
قمت اى هنا لا قدم تقريري لا لاسمع الى دروس كيفية الانحلال
والركوع .

.. على وسلك يا سيدى القائد ، ولكن لا تلومن الا نفسك بعد
ذلك ، اذا ما عكست الامور وساء الموقف . لقد قمت بما هو
مفروض على بحكم منصبى . ان جلالة الامبراطور لا يتساهل دائما .
.. لم اسمع عن ماكسيمانيوس انه لى الجانب . هيا بنا لنبدأ
المراسم . القاعة الداخلية أولا ، اليس كذلك ؟

واستقبله رئيس الحرس مستفسرا عن الاحوال في بريطانيا ،
دون ان ينتظر اجابة منه ، بل ولاء ظهره وتقدمه الى القاعة
المستديرة ، حيث وجد بها حشدا من الناس ، ملأت اصوالهم جو

الكان ضو شاء وطنينا . وبين كوستانتينوس وجه كيرنتيوس بين
الحاضرين ، فاخترق صفوف الواقفين حتى تمكن من مصانحته
وتحيته قائلا :

— لقد طال بنا الفراق ، انك لم تتغير كثيرا . ما هي أخبار
الفيلق الرابع عشر ؟

— واثت أيضا لم تتغير كثيرا . كم من الوقت مضى منذ آخر
لقاء لنا ؟

— الكثير . لقد تزوجت من فتاة بريطانية وانجبت طفلا أو قل
صبيا ، فقد بلغ الثالثة عشرة من عمره .

— يسرني أن أسمع ذلك ، ابش به الى لائقته الكثير مما
لا يتقنه أبوه .

وضحك مسترسلا :

— لقد تعلمت الكثير في مصر ...

— أوبلغت بالأوامر الجديدة .

وقبل أن يجيب ، تلفت فيما حوله ، ولما اطمان الى أن احدا

لم يسمعه قال هائسا :

— يا عزيزي ، ان هذه المظاهر هي كل ما يضي عليهم قدسيته

لك هي المراسم المتبعة في الاحتفالات الفارسية .

— ترى لي من الامباطورين ستكون العلوة ؟

— ليس هذا من شأننا ، لقد اصبحنا من نصيب ماكسيمتيوس

وضحكا معا ، وبدا لا التعليقات على ما استجد من اوضاع ؟

وعجبا معا من تلك الأوامر الجديدة التي ترض عليهم المجدود ،

وراحا يستعرضان ظروف الامباطورية ، حتى قطع عليهما

حديثهما صوت يدعو الحاضرين للانتباه :

— مستصدون الدرج بتزيين التلاء على اسمائكم .

واخذ يتنادى الأسماء ، وتقدم كل من سمع اسمه في صف

الاستعراض الطويل .

وكانت قاعة الاجتماع فخمة . فسحة تهيح بالضباط ورجال

الحرس ، يتوسطها كبير الباوران مشبرا الى كل قادم بأن يتخذ

المكان المعين له .

وملى حين ثورة من جميع الحاضرين بالقامة : اتواح المستر
 الموجود فى طرفها الآخر ، وبرز منه رجل ضخم متين البنيان ، قد
 بدأ بوجهه الملتحي وشعره الكث وعتقه النظيف ، كتور هائج يطل
 على الجموع برأسه القبيح متفرسا لينتقى قريسته .
 وكان لظهوره المدهم بمظهره الساكن الاصرار ، ود لقل جسد
 له الحاضرون فى اماكنهم ، واستقر كل فى مكانه ، وقد تملقت
 ابصارهم به . . حتى كبير الياوران نفسه ، وقف مبهورا وكأنه على
 وشك ان يفقد وعيه . وازعد الامبراطور بصوته الاجش قائلا :
 - اين هو ساميرينوس ؟ واين هو كونستانتينوس ؟
 - هنا يا صاحبه الجلالة .

- اقتربا منى ! وليصرف سائر الحاضرين !
 وتقدم الضابطان من الامبراطور الذى استدار وعاد ليختلج وراء
 الستر ، وتبعه الضابطان الى الغرفة الداخلية . ومن هذه الغرفة
 تقدم الامبراطور الى دهليز ومنه الى غرفة اخرى يستقر راي
 الامبراطور اخيرا على ان يتوقف بها امام منضمة قد نشرت عليها
 خريطة كبيرة وقصحوها بعض الضباط النظام تعرف كونستانتينوس
 منهم على جاليريوس وقلتينوس واين الامبراطور ماكسينتيوس .
 وبعد ان رد الامبراطور على القائدين تجمتهما بصورة تبين فيها
 كونستانتينوس كل سمات الغضب والثورة ، ورأى من وجهه
 المرعب ما أكد له ملاحظته هذه . . ابتدره الامبراطور قائلا :
 - انى قانت القائد كونستانتينوس !

قال ذلك بصوت اجش تهتز فبراته غضبا . ان فقد بعينك
 ان تعلم بان جنوب بريطانيا ، الاقليم التابع لك ، قد احتله الاعداء

- ٤٤ -

ومرت برهة قصيرة خيل لكونستانتينوس ان الامبراطور قد قتل
 سوابه . فراحه تبين من ملامح من يحيطون به من فواد ان الامر
 ليس كذلك ، وانه اشد من هذا خطورة وجدية ، اى علو هذا
 الذى احتل بريطانيا ؟ هو كوريو قائد الاقليم الشمالى . ولكنه

ليس مدوا ، وان كان قد فعل ذلك لكان الامبراطور قد قتل باتها
ثورة وليستاحتلالا - - او يكون كاروسسيوس قائد الاسطول ؟ انه
هو كاروسسيوس وحسبه هذا .

- آهو كاروسسيوس يا مولاي ؟

وقال كونستانتينوس رابط الجأش متمالكا لزمام تفكيره مرددا
يشه وبين نفسه :

- انه كاروسسيوس الرجل القوي كان موضع شك الامبراطور ؟
والذي احتل مكان الصدارة ممن أدرجهم الامبراطور في القائمة
السوداء . هذا الرجل الذي كان بعد الامبراطور الفذة لهاجمته قد
باتر هو وسبق الامبراطور الي ذلك واسرع بأسطوله الي بريطانيا
واحتلها . او كان اقصاؤه من بريطانيا مفرا دون تدبير ؟ او يمكن
ان يكون في الامر مادمي على الامبراطور حتى يأتي امر استدعائه
في الوقت المناسب ؟

وبينهما كان كونستانتينوس غارقا في تأملاته هذه ، كان
الامبراطور يزكاد ثورة وهياجاً ، ضاربا المنضدة بقبضة يده مهددا
متوعلا فتقدم كونستانتينوس خطوة الى الامام متصبيا القامة :
فقتل له الامبراطور :

- ماذا تريد قائلا ؟

- لقد استعيت بناء على امر من جلالتكم . وأبحرت بعد ان
تلقيت هذا الامر قورا على ظهر السفينة التي امرت بها بجلالتكم
وقد قطعت بي هذه السفينة المسافة في ثلاثة وستين يوما . .
- كأنك تريد ان تلقى باليوم على عاتقي . ان هذا القاتلا
لا تنقصه الشجاعة ؟

- والي لأرجو ان اعيد للامبراطورية ما فقدته .

- واني لك ان تعلم بما وقع هنا ايها القائد ؟

- انني لا اعرف أكثر مما أسطنتي به علما . وما دام المجرم

هو كاروسسيوس : فاني أستطيع ان اتصور كيف فعل ذلك له .

- دعنا نسمع ما لديك من افكار وآراء قيمة .

- هل لي ان أسأل واحدا قبل ان أدلي بما لدي ؟

- لا مانع . أوجز في القول .

— هل كلفت اليكتوس بتسليم رسالتين من جلالتك ؟
 — لقد أرسلت في طلبك فضلا ، ولكننى لا أعرف من كان
 الرسول الذى كلف بهذه الامورية .
 ثم سأل احد قواده قائلا :
 — من الذى حمل رسالتى اليه ؟
 — الضابط سترابونيوس . ان اليكتوس من رجال كلروسيوس
 يا مولاي !

فاوما كوستانتينوس برأيه قائلا :

— لقد دار بخلدى هذا . وهذا يقصر سر مهمته لسفري .
 لقد أوعيتى باننى ان تاخرت أثرت غضبك ، حتى انه لم يوافق على
 تخلى يومين حتى تودى القوات بعين الولاء لجلالتك . ليس من
 شك أن كلروسيوس قد استطاع ان يمنع سترابونيوس من مواصلة
 مهمته عندما وصل الى جيسورباكوم في طريقه الى بريطانيا . لقد
 كان كلروسيوس عير واثق من قوايا الامبراطور بالنسبة لشخصه .
 ولكنه لم يستطع أن يثبت منها . فما كان منه الا أن انتهر الفرصة
 لابعاد حاكم القطاع الجنوبي في بريطانيا ليخلو له الجو . وما الا
 الحماة لاجبارى حتى وجه ضربته التى أعده لها .

— هذا ما كان فعلا . كيف عرفت كل ذلك ؟

— فضلا عما ذكرته لمولاي من مقدمات ، كان الله فى صالحه
 بعد ابجاري ، وهو من الأمور التى يجب على كل راعب فى عزو
 بريطانيا أن يحسب لها الف حساب . واذا سمح لي مولاي
 عرضت على مساعد الخطة التى أرى انها تكفل لنا بلوغ ما نريد .
 وعرض كوستانتينوس على الامبراطور خطته التى صادقت لديه
 قبولا . غير أنه تبين من اقوال قائده ان الشواطىء الجنوبية لبريطانيا
 كانت أضعف المنافذ الى داخل هذه البلاد ، فهاك راعدا وهو يصيح
 — أيها القائد المكلف بحماية هذا القطاع ، كيف تركت هذه
 الجبهات ضعيفة فى مقاومتها حتى تمكن كلروسيوس من غزوها
 واقتحامها بهذه السهولة ؟

وفي هدوء الواثق من نفسه أجاب كوستانتينوس :

— لطالما أرسلت بالاحتجاج لرو الآخر ، على اضعاف جيش

الاحتلال ومنخفض عدد قواته . ولقد بلغت تلك الاحتجاجات
أحد عشر احتجاجا في السنوات الماضية .

فلم يجد القائد الأعلى ، ماسرينوس ، بدا من التدخل قائلا :
— انما نتلقى الكثير من هذه الطلبات يا مولاي . فلماذا ما استجبتنا
لكل طالب منها ، لما استطعنا ان ننفذ بما نريده من قوات
عندما يقتضى الأمر هذا . . ثم انه لم يكن هناك من الأساليب ما يلزم
لتنوية الجبهة في بريطانيا .—

فقال الإمبراطور متهمكا :

— وهذا ما أثبتته الحوادث فعلا !

وعقب كونستانتينوس قائلا :

— ثم ان الغزو تم بمعرفة الأسطول الروماني المفروض ليه ان
يحمي شواطئه بريطانيا ويصد أى اعتداء عليها !
— ان اتصالك أمر موقوف به . يكفى هذا الآن . يمكنك ان
تتناول طعامك معنا يا كونستانتينوس ، وأياكم من ان يطرق احدكم
موضوع بريطانيا خلال النصف ساعة القادم .

ولم يكن كونستانتينوس قد نثب الى تلك المائدة المعدة في طرف
الغرفة الآخر . كما انه لم يكن قد لاحظ السيدتين الجالستين
أليها . وعاد الإمبراطور ليتخذ مكانه من المائدة وبعده القوادى
وأقبل الخدم يقومون على خدمتهم وتقديم صحاف الطعام واحدا
بعد الآخر ، وكان مقعد كونستانتينوس في مواجهة كبرى السيدتين
وقدعه القائد العام الذى كان يجلس الى جانبه إليها وعرقه بها .
أما ميودورا ابنة الإمبراطور ، او بمعنى أدق ابنة زوجته . وكانت
رشيقة قائمة جذابة .

وسأل فيما بينه وبين نفسه ، مما لآ كان لراما عليه ان
يتجاذب معها اطراف الحديث من علمه . ولكنها سرعان ما جنبته
هذه الحيرة بقولها :

— لملك فوجئت بهذا الذى وقع في بريطانيا ! لا تعجل نفسك
هناك الرد اذا كنت لا ترهب في ذلك ! .
— انك في غاية المجاملة يا سيدتى ! .

وفي الحق انه كان بحاجة الى ان يسرع بالعودة الى بريطانيا ولكنه كان بحاجة الى ان يخطو الى نفسه ليتدبر امره . ودان بخلده ان ينهض مستأذنا ، مطالبا بتزويده بالسفن والقوات اللازمة لهفته الشاقة العسيرة .

وعندئذ سمع الفتاة الصغيرة التي كانت تجلس بجوار يودورا والتي لم تتجاوز السابعة من عمرها ، تقول له :
- أنا فاوستا !

ولا وجدته لا يهتم بما لا تشغاله بما كلن ينكر فيه عادت تقول له محتدة :

- اننى شخصية لها أهميتها ، الست ترى ذلك ؟ اننى ساكون امبراطورة فى يوم من الأيام !

فقال لها يودورا وهى تتأمل كونسنتيوس معتثرة :
- صه يا عزيزتى .

فقال الفتاة الصغيرة محتجة :

- اليمت هى الحقيقة ! انك لتعرفين ههنا . سامبح امبراطورة ، وعندئذ سيكون عدا هو الرجل زوجى .

فضحكت يودورا ولم تعلق شئ . وهنا تسأل الامبراطور عما قاتله الصغيرة واضحك يودورا . فاعادت يودورا على مسامح الامبراطور ما قالته فاوستا . فابتسم الامبراطور وهو يرمق حاكم جنوب بريطانيا بنظرة تقدير . وعندئذ اجاب كونسنتيوس على سؤال الصغيرة قائلا :

- عندما تشيخ عن الطوق ساكون قد قدمت فى العمر ،
لقضائى اننى رجل متزوج كما تعرفين .
- لا عليك من هذا كله .

وعندئذ ضحك جميع الحاضرين ، باستثناء يودورا التي لم تشاركهم ضحكهم . بل ولاحظ كونسنتيوس مسحة من الخوف تكسو وجهها القاتن . ومالت الى الامام وهى تحاولة :

- هل تقيم زوجتك فى بريطانيا ؟

- اجل . لهوجنى وابنى اء

الاشاحات عنه بوجهها . وكما ملأت لتواجهه كانت ميناها
 يقرقر قنين باللموع ، وسمها تقول له :
 — يا لرجل السكين ! يا له من أمر شديد الوقع على نفسك !
 فحماق كوستانتينوس فى وجهها ، ولاحظ أن جاليريوس
 الجالس الى جانبها يتسم فى وجهه .
 اما الامبراطور فكان متهمكا فى الاتهام طعنه . ولم يكن يوسع
 لحد ان يعرف ما يحول بخطر .

— ٥ —

قالت ميلينا وهى تستحث الخطى :
 — سنصل الى فابتنا ما قريب ، لقد اقتربنا من المنزل .
 فرجع قسطنطين رأسه فى شمم قائلا :
 — لست متعبا يا امه .
 فابتسم الضابط فافونوس أو فاسيليوس كما كان يجب ان
 يسميه قائده ، لقد كان جد متعب ، هو وروفوس وشرقة من
 الجنود الذين انضموا اليهم . هذه هى الروح التى يجب أن يتجلى
 بها ابن كوستانتينوس وريب فافونوس فى التدريب المسمى .
 وبعد أن أصدر الضابط أمره للجنود بتسوية صفوفهم ، ركض
 بجواده الى حيث لحق بهيلينا قائلا :

— هل تسمحين بكلمة يا سيدتى ؟
 — هات ما عندك . ترى ماذا تريد ان تقول ؟
 — كره ما تعلمته من جندى منظم منذ عدة اعوام . اذا ما كنت
 بممتلكة جوادك فى وقت الحرب ، يحسن الا تفكرى فى شيء .
 ويجب الا تجهدى ذهنك بالتفكير ، حتى يكون مستملا للتفكير منلما
 يوجد الجدد .

— تفكرى يا فافونوس . ساجتهد ان اعمل بنصيحتك .
 واشتم فى مسيرهم رائحة البخان تمت عليهم من الشمال
 الغربى . ترى هل اقتربوا من كويل كاسترا ؟ لحسن حظهم اتبع

يسرون بين أشجار الغابات التي تحجبهم عن الأنظار ، ان السبع
فى مكان مكشوف غير مناسب فى أيام الحرب والنزال .

يتضحها الضابط بالا تفكر ! وكيف لا تفكر ؟ أو يمكنها أن تنسى
منظر دوروفيكس رئيس الخدم ، وهو يصعد الدج ركضا
وقد سالت الدماء من عنقه . وما ان وقع نظره عليها حتى توقف
محاولا ان يتمالك نفسه محببا وهو يقول لها :

سيدتى : لعله من الأفضل أن .. لم تهاوى الى الأرض جثة
هائبة . هل يمكن الا تفكر فى ذلك ؟ والا تستعرض ما كان يمد
ذلك عندما عادت مسرعة الى داخل البيت طالبة النجدة ، باحثة
عن ولدها قسطنطين الذى كان يتلقى تدريباته العسكرية مع
ألفونسيوس . وبعد ذلك اختلط الحابل بالنابل وسادت العوضى
أركان البيت . هل يمكن أن تسي اللحظة الحاسمة فى حياتها ؟
هندما أقبل الليكوس ومعه ستة من الرجال . وهناك ، فى المدخل
الخشى للبيت وقف يتصمم لها محببا بكل ادب واحترام قبل أن
يلقى على مسامعها ، وعلى مسامع من كان يقف معها ، أنباء استيلاء
كاروسوس على لند يوم ومسلحها بدون مقاومة ، وتقدم قواته
البالغ عددها مائة الف مقاتل فى قطار جنوب بريطانيا . ثم راح
يطلب فى صفات كاروسوس ، وكيف سيجعل من بريطانيا دولة
مستقلة من روما . وعلى هذا النمط من الحديث أنهى خطابه اليهم
وهو يتسم إبتسامته الصفراء .

وعندما وقف قسطنطين يصفى اليه قلعا نافذ الصبر . وما ان
توقف الليكوس ، حتى أسرع العصى قائلا :

— ترى ما هو رأى والدى فى كل ذلك ؟

قطرته فالونسيوس بلرامه قائلا :

— مهلا أيها الجننى .

وبعدما عادت هيلينا الى داخل المنزل حيث انفردت بالليكوس
واستطاعت أن تواجهه بما يدور بخلدها .

— انها حركة عصيان ضد الامبراطور . انكم مستبدون لمن
باعتنق الشمام غالبا .

فصاحت ضحكتها الصفراء قائلا :



« لست أعرف إلا امبراطورا واحدا اعترف به ؟ »

— انه كاروسوس . اعظم رجال عصره . وما ماكسيميانوس
ودقلديانوس الا خنالة القوم اذا ما تورنا به .»

— لقد تحدثت فيما تحدثت به عما سنراه من خير على يدى
امبراطورك المزعوم . وارى ان هذه الأيام قد بدأت فعلا ، بدأت
بقتل احد رجالك لرئيس خفى .»

فانتذر لها الليكتورى بأن ذلك كان خطأ غير مقصود . وبأن
ما حدث من النتائج الحتمية لحالة الحرب التى تمر بها البلاد .
ولاك لها ان شيئا من ذلك لن يتكرر ، وانه يقضى لها ولكل من
يلوذ بها السلامة والامان ، مادامت لا تصادى الحكومة الجديدة .
وتعهد بأن يكفل لها حياة راحة هائلة . وما طيبها الا ان تكون
جميل منعه بابعاده لزوجها من البلاد فى الوقت المناسب ليجتنب
ما كان سيتعرض له من أخطار .

فظلت السماء فى عروقتها ، ولم تشعر الا ببدايتها ترتفع وتهوى بها
على صلفه ، مما أثاره ، فتقدم منها وقبض على كتفها بعنف ، وقفا
اخذت عيناه شربا .

وحاولت ان تتخلص من قبضتيه ، ونجاة رأت الضابط
قافوريوس يكيل له الكلمات فترنح البعوث الامبراطورى واستل
سيفه من غمده . فقال له قافوريوس :

مرحى ، مرحى . نحن بحاجة الى شيء من أكثرية .
واسرع يستل سيفه من غمده هو الآخر .

وكان الليكتورى يصرخ مناديا على رجاله بأعلى صوته . فقال
له الضابط :

— لا تنعب نفسك . لقد اخطانا حلونا من رجالك . . لم يبق
الا انت وأنا وجهنا لوجه فيها استعداد .

ودار القتال بين الرجلين . وكان الليكتورى مدافعا أكثر من
هاجما . وبعد برهة وجيزة دخل قسطنطين القاعة ، والدماء تنزله
من جرح فى صلفه ، ويده سيف يلوح به مهلدا . وراه قافوريوس
بظرف عينه فقال له :

- راقب ما يجري فقط ولا تتدخل - هل أهتم بجانب الرجال
السنة ؟

- أجل ، دعني أشارك معك ، أرجوك .

- ان في اقتراحك ما يشرفه ، دع لي هذا الكلب الصغير ،
ولم يستمر النزال بين المتبغذين طويلا ، حيث عاجل الضابط
الجموت بضربة سيف في جبهته ، صالت بعدها الدماء على وجهه
لثغرية ، فالتقى سيفه عن يده وسقط على الأرض يتلوى ، ان الألم
والتفت الضابط بعد ذلك الى هيلينا قائلا :

- آسف لما حل بالفرقة من فرس يا سيدي .

فاجابته هيلينا ضاحكة :

- بل شكرا يا فافوبوس .

وهذا ثم اندخلوا القود الاولى التي هاجمت منزل حاكم جنوب
يونانيا ، فهناك في الحديقة كان الرجال الستة تحت التحفظ في
حراسة روقوس ، كما كان هناك كثير من الدماء والصيد في انتظار
ايه اشارة من سيدهم ، بعد ان اودعوا الاسرى في المنزل .

وما كاد المستحرون يتعدون بها تدفق لهم من نصر ، حتى اقبل
وسول القائد باليانية ، جاورس واليربوس ، بكلمة عاجلة تنصيح
فتمسخته ايم بالرحيل فورا الى الشمال اكبوا في حماية القائد
كوتريو ، حاكم الة لاج الشمالي .

وقد طفت ايم هذه الرسالة في المساء . وبعد استمراش
هيلينا الموقف مع فافونيوس وجدت أن فاليريوس على حق ،
وبالذات لأن اليكتوس ليس بالرجل العادي ، فقد يقبلون للبحث
عنه . كما علمت هيلينا من فافونيوس بأن اليكتوس لم يفارق
الحياة بعد ، بالرغم مما ترف منه من دماء غزيرة ، لأنه تعدد
الا يحميه في مقتل .

وقررت هيلينا أن ترحل عملا بمشورة نائب القائد ، ولكن الى
قصر والدها وليس الى القطاع الشمالي . كما أشار عليها بذلك ،
وامرت باعداد الجياد وما هم بحاجة اليه من اسلحة ودؤن . وقررت
أن تخرج الخدم والصيد ليلهبوا الي شاموا ، وأن يستبقى دوفوس
معها فقط .

وصعدت الى غرفتها بالطابق العلوى ، واحضرت بعض الحطب
والنفود التى وزعتها على الخدم قاتلة :

- من الخير لكم ان تذهبوا بعيداً عنى حتى لا يتأكد ما قد
المرض له من اذى بحكم منصب روجى - اتنا سنلتقى فى يوم
ما بعد ان تعود الامور الى نصابها وتستعيد روما مكانتها . ان هذه
الحال لن تدوم طويلا .

وبعد نصف ساعة كانوا فوق ظهور جبلهم . هى وقسطنطين
ونافونيوس ورفوس ، الذى كان يسحب جوادا آخر خلف جواده
محملا بما يحتاجون اليه من مؤن وانطية وغير ذلك معا لا غنى لهم
منه . وكانوا آمنين بعض الشئ ، لأنهم اغفلوا من الليل ستارا
متجنبين الطرق العامة ومسالك المدن .

وقابلوا فى طريقهم بعد مسيرة بضعة اميال . اثنى عشر جنديا
من جنود احدى كتائب العيلق المشربين ، وما ان وقع نظر هؤلاء
على فافونيوس ورفوس ، حتى طلوا فرحين بهذا اللقاء . وصارحهم
فافونيوس حقيقة الموقف قائلا :

- اتكم ان اخترتم الانضمام الينا ، كنتم لا محالة من الهالكين
ورأى ان تسلموا انفسكم كاسرى الى العدو الغالب حتى تتكشف
الامور ، ولكنهم آثروا ان يقيموا على ولائهم لقائدهم ، مهما يكن من
امر الاخطار التى تعرضون لها قلوبهم هذا . وعاد فافونيوس بعد
ثلاث ساعات من هذا القرار بعد ان تمكن من ان يلبس لهم اثنى عشر
جوادا .

تابع الركب سيره بمسرها فى غابة ترينوفات فى طريقه الى
كوبيل - كاسترا . وفى الطريق سال الصبي امه :

- امام . متى سيعود والذى ليظنر هؤلاء الخونة ؟

- ليست ادرى يا ولدى متى سيعود . كل الذى امره اثنى
والثقة من هودته .

- انا الآخر واثق من هودته . اثنى تسلط عن موعد عودته ؟
هل سيطول بنا الانتظار شهورا ؟

- من يدرى ؟ دعنا نأمل خيرا .

من يدرى ؟ ومن يستطيع ان يجزم بشئ ؟ ان كونستانتينوس

لقى روما مع الإمبراطور . وقد يرى الإمبراطور أن يرسل قمره من القواد ويقرر استبقاه باعتباره مسئولا عما حدث .

وتبينت بعد قليل ، أنها تمر بين أشجار البوظ التي يعيها والدعا . ووقع نظرها على الصخرة الكبيرة الأثيرة عند والدعا ، والتي كان يفضل الجلوس عليها . وراحت تجيل عينها في الظلام ، كلها أن تلح شيئا أبيض ، كما كانت تفعل مر قبل .

ورأت قافونيوس ، الذي كان يسير في المقدمة يرفع يده محذرا للنظر فيما وقع عليه بصره . وتوقف الركب من متابعة السير ، إلا من هيلينا التي تابعت سيرها ، مشيرة إلى قسطنطين أن يحلو محلها . وسمعت قافونيوس يهمل قائلا :

— أن أحدا ما يجلس هناك . وأوامات يراسها موافقة مندفة بجوادها إلى حيث كان يجلس والدعا .

— مرحبا يا بنتي مرحبا بحفيدي .

ونفض هيلاري ، تابعه ، الذي كان يجلس عند قدميه ، واقفا وأتحنى محييا سيده .

وأمرت بالترجل من ظهر جوادها ، واندفعت إلى أحضان والدعا ، تدفن وجهها في صدره وتجهش بالبكاء :

— لقد حضرت يا ابنتي في الوقت المناسب . تعال أنت الآخر وأ ولدتي . هيلاري ، اصطحب الضابط ورجاله إلى القصر وقدم لهم الطعام والشراب . ثم عد الينا بأحدى العربات وبالموسيقين . وأسرع قسطنطين بالترجل من ظهر جواده هو الآخر ، وتلقاه الملك بين ذراعيه وأجلسه بجواره ، ومضى هيلاري لينقلها إلى أمريه .

وربت الملك بيده على رأس هيلينا ، فرفقت وجهها إليه قائلة :

— أبناه . لقد عرفت كل ما جرى . أنا واثقة من هذا . ترى متى سينتهي كل ذلك ؟ . وماذا تشير علي أن أفعل ؟

— إن الفزاة يجيئون ثم ينتهبون . لا دوام إلا للتحق .

— ولكن روما . روما . هل انتهى أمرها ؟

- اذكر يوما كنت كنتني فيه ذلك • ايلين - ألم يصبر هذا
هناك ؟

- لقد كنت طفلة يا والدتي •

- ولا زلت كذلك • انك لم تعلمي الا القليل • ولكنك
مستعلمين الكثير قريبا •

- اننى احب زوجي ، أحبه من كل قلبى •

- وهو يفكر فيك الآن • ولكنه قد لا يستطيع على ذلك
طويلا • لئن كنت تحبينه حقاً ، فلتحبينه بكل ما تملكين من قوة •
وليكن حبك له فى جميع الأحوال • ليكن حبك له فوق مستوى
الأسى وخيبة الأمل • هذا الحب سيؤتى ثماره عندما يحين الحين •
ولترتضى بحبك على كبرياؤك • ضمنى هذا نصب عينيك • ليكن
حبك أقوى من كرامتك • عندما يتطلب الأمر هذا منك •

ولم تستطع هيلينا أن تضع النقط فوق الحروف ، ولكنها
شعرت بما ينطوى عليه حديث والدها وتصالحه من تحديق
وتلميح خفى • فليس فيما سمعت ما يطمئن • فقالت له :

- بماذا تشغى على ؟ - هل أقيم معك ؟ - وهل يكون الصبي
هنا نى أمان ؟

- كلا يا ايلين • لا أنت ولا أنا بمستطيعين البقاء هنا • فعلى
كل منا أن يذهب فى طريقه •

- ولم لا يا والدتي ؟

وتاملت وجهه الهادئ المتسم الوديع • ولكنها تبينت من
بين خلعائه ومن نور عينيّه أن أيلم الرجل • بل سطعته فى هذه
الحياة قد قاربت نهايتها • لم سمعته يقول لها بصوت حالم :

- ههوى يا ابنتى • اننى رجل سعيد قد بلغ من العمر عتياً
وما اظنك براغبة فى تفكير صفر عسالى • اليس كذلك ؟ اذ
فلتستمعى الى • فهما يكن من أمر ما تظنين - واتى لخبر بقليل
الكبير وأتق من اخلاصك - فانك لن تنسينى فى تمامة شغبي •
لا تحرضيه على مقاومة العدو الفاسد • ان الأوان لم يؤن بعد •

حتى روما ، تتطلب الكثير من الوقت لتبنى لها أسلوبا . دعى
 هذه العاصمة تمر بهم كما تمر العاصفة بحقل من القمح فتسيل
 معها سبيلها . إن الفزاة يقبلون ويمضون . ولا دوام الا للحق
 الأعلى . هدينى بالا ثيرين شقاء شعبي .
 - اعدك بذلك يا أبتي .

- حسن . واننى لا أستطيع أن أطالبك بالخضوع للفاتح
 المفتصب . انك مدينة بالولاء لزوجك ولروما . ولتصرفنى بما
 يتطلبه منك واجبك وولاؤك . لن أستطيع أن أمدك بإية مساعدة
 من جانبى . ولكننى أستطيع أن أمدك بما يكون أشد نفعاً لك من
 ذلك . . . بعقل قادر الوجود . فسيكون خادمى وتابى هيلارى ،
 خادمك وتابعك من الآن فصاعداً . اننى أورتك ما لم يورته ملك خلفه
 من قبل . انه الاخلاصى يابنيتى ، فامتحيه فتتك بقدر ما كنت تتقيد
 بى .

- اطمئن يا والدتى . انى متبعة لمشورتك عامة بها مقبلة
 لهديتك .

- ان هيلارى هو الحكمة التى تنقص الشباب . انه العقل
 المفكر المدير-الذى لا يستطيع أن يكونه ضابطك الحارس . اتجهى
 شمالا ، ولكن لا تتجاوزى السور العظيم وهناك مستجدين الغابات .
 الغابات التى ستلقى ابنة كويل بكل حنان وحلب 1 .

وجال بعينه فيما حوله من أشجار قائلا :

- أشجار الغابات بأخشابها هى التى متحميك من أعدائك .
 ان فى الخشب سر الحياة - ولعلك تذكرين يا ايلين يوم ولد هذا
 الصبى ؟ لقد أمرتك بأن تضطجى على المنضدة الخشبية فى غرفتك
 اليس كذلك ، ومن هذا الخشب نقلت على ألامك واجزت أزمته .
 هناك صلة وثيقة بينك يا ابنتى وبين هذا الصبى . صلة أقوى
 من صلة الدم - صلة أقوى من الأمومة - التى يثيد بها الشعراء
 على مر الزمن . لقد قدر لكما - أنت وهو - انكما مستعديان إلى
 لهجرة الحياة معا 1 .

فداح صوته يخفت شيئا فشيئا ، حتى غلبه النعاس واستسلم

لنوم عسيق • والتفتت هيلينا لترى والدها هو الآخر قد حلما حلوا
جده من شدة ما غاله من نصب واجهاد • فتاملتهما بنظرات حانية
رحيمة ، وجلست ساكنة حيث هي ، حتى لا تزجج الحد والحديد •
إن كل من حولها مهجد متعب • بحاجة لمن يقف إلى جانبه • فقلها
أفنى إلا تهن ولا تضغف •

ووصلت إلى مسامعها أصوات الموسيقى التي أمر بها والدها
أمية من بعيد بالحادثا المنظمة القصيرة • أنها موسيقى والدها التي
يعبها ويرناح لسماعها • موسيقى والدها يرن صناعا عبر الجزيرة
التي يقتل رجالها وتحرق دورها وتعبها الفوضى والحراب • وبالرغم
من ذلك كله • يبعث الملك كويل في طلب العازفين الموسيقيين من
وجاله • دون أن تدرك لذلك سببا • لقد عرفت عنه دائما أنه رجل
غريب الأطوار •

ولم تسهر من قبل بأنها بعيدة عن والدها بمثل ما كانت تقص
به في عهد اللحظة • كلا • • • ليست هذه بساعة الحكمة والتروي •
إنها ساعة الجهاد والنضال • وأسفت على ما قيدت به نفسها من
وعد له • أنها لم تحضر لمقابلة والدها لتسمع منه للمرة الألف
قصته المكتسب حتى • • • وشجرة الحياة 1

واستطاعت أن تتبع القادمين في الظلام ، يتقدمهم هيلاري •
ومن بعده الموسيقيون • ثم المحربة الصغيرة • وما إن أصبح القادمون
على بعد خطوات منهم توقف للموسيقيون عن العزف • في انتظار
أوامر الملك • ولكن الملك لم يتحرك ولم يتنبه لحضورهم •

وتأمل هيلاري الشيخ التائم في لهنة وقلق • ثم انجنى لسيدته
وتأمل الصبي • وتقدم منه • حيث حمله بين ذراعيه وأودعه العربة
في حنان الأم الطوف • ونهضت لتتبع والدها إلى العربة • حيث
حياتها قائمها جالو الهرم ميتسا • وبعد ذلك عاد هيلاري إلى
حيث يجلس الملك • وفحاة توقف عن متابعة سيره صعدا النظر
في وجه الملك جوها • وأرتد مربعا لينادي ميديته •

كان الملك كويل جالسا على صخرته المحببة كما كان يجلس
دائما • وقد اكتسب وجهه بصفرة الموت • فأدركت أن والدها قد

كأرق الحياة ، كما أدركت السر في استعائه للموسيقين وفي قوله لها عندما أقبلت عليه :

« لقد جئت في الوقت المناسب »

وتخيم السكون على المكان ، ودان على الجميع صمت مطبق

وأصبحت هذه البقعة من الأرض وكأها قطعة من الأبد . . ووقفت ، وطال بها وقوفها ، وقد شعرت بأنها اختلطت نفسها عن الكون بعيدا حيث لا حس ولا حياة .

ورفعت ذراعها امرأة الموسيقين بعزف النشيد الملكي . ومزلت الموسيقى النشيد وردد الجميع معها كلماته . وما انتهى العزف والترديد ، حتى اقترب هيلاري من الصخرة ليحمل الملك كما حمل حفيده من قبل . لقد رفع بين يديه المستقبل والمضى : واحدا بعد آخر .

- ٦ -

سيد لمين ، هذا ما قاله القائد تيرنتيوس لوميله كونستانتينوس وهو يرتدى ثيابه ويتأنق فيها . فسأله :

« ماذا تعنى بقولك هذا »

« اعنى ما قلته وما فهمته أنت يا صديقي ! »

ويعد أن صرف كونستانتينوس ثيابه ، قال لصديقه بجفاء :

« لا أعرف هم تتحدث . أتني ذاهبا لاستقبال راسي »

« بنده على دعوة السيد يودورا . أليس كذلك ؟ »

« إن أمير يورس سيكون هناك . وقد يشهد الإمبراطور هذا الحفل . »

« إن ماكسيميان مشغول بشرايبه من كل شيء آخر . »

« حتى أنه لم يجد فسحة من الوقت للحملة البريطانية »
« لقد انقضى عام دون انخلا أى إجراء في هذا الشأن . »

- 3 -

— لقد بذلت أقصى ما لي ومعهك .. ولو كنت مكافئ لابتعدت
عن مامبرتيوس .. لأنني أعتقد أنه لن يظل في منصبه طويلا فقال
هام .. أن أسير الطرق هي أقصرها .. عليك بسلوك السبيل
المباشر يا صديقي .

— وهنا ما أرجوه فعلا ، إذا ما ليحت لي فرصة لقاء الإمبراطور
اليوم .

— قليل من الصبر ، أيتها الآلهة ! عندما أقول الطريق المباشر
لا أعني بهذا الإمبراطور .. أننى أعنى نيودورا .. عذبة الآلهة
الك !

— أرجو ألا تقهر الأميرة في هلاكك . لقد أصيبت على من
عطفها الكثير .

— وهنا هو بيت التصيد . قلن لها تأثيرا كبيرا على والدتها .
واعتقد أنه لا ينقصك من الذكاء ما تستطيع به أن تضع النقط فوق
الحروف .. صيد ثمين !

وشغل عنه تيرنتيومس حتى لا يتيح له فرصة للكلام . ولم يجد
كونستانتينوس بدا من مغادرة الغرفة دون أن يتعب بشيء . وخرج
ليستقل العربة التي صرف ثألها ليقودها بنفسه في طرقات
المدينة المزدحمة .

ولى الحقيقة الفسيحة الأرجاء ، تنثر المدمعون جماعات
يتبادلون الأحاديث والأقويل والإشاعات ، كما هي العادة في هذه
الجماعات دائما .

وكانت أكبر هذه الجماعات ، الجماعة المحيطة بالأميرة نيودورا
التي ردت نحية كونستانتينوس عندما أقبل بعيها ، على غير ما ألفا
منها ، من ود وترحاب . حقيقة أنها ابتسمت له كعادتها ، ولكنها
تسائلت عنه بالحديث مع فائينيوس . لماذا جد بحق السماء ؟
ماذا ترى في هذا الطاووس المائق ، الذي لا هم له إلا أن يعنى
بصقل شعره وارتداء لآخر الثياب الموشاة بالذهب والفضة . أن
تسابق حرس وحاميات ، لم يكن له شرف القتال في مقدمة الجيوش
والنزول إلى جبهات المراع العتيق كغيره من كبار القواد الحنكين .
وغير كونستانتينوس بالفضية يستبد به ويردده : كلما رأيت

الأميرة مستغرقة في حديثها مع هذا اللص المستترک . ولا ضاق
 قلوبها بما يرى ، نهض من المائدة التي كانت تجلس إليها الأميرة
 بيودورا بالثرثرة ، وسلو على مضض في الحديقة يسترخى الأمر
 محاولا أن يجد لماملة بيودورا الجدينة تميلاً من وشاية واثق
 أو من علم رقيبها في أن تختصه بعطفها أمام هذا الجمع الملتئم
 حول مائنتها . وشعر بأنه في حيرة من أمره لا يستقر له قرار .
 ولابل إحدى الخدم التي كانت تحمل قنبلة من النبيذ وبعض
 الكؤوس ، فافزع لنفسه كأساً تجرعه دفعة واحدة وهو يقول
 - إلى الجحيم بحفلات الاستقبال العامة . إلى الجحيم بالنساء
 جميعاً . ترى ماذا إلى بي هذا الحفل ؟ أو لاحتماء النبيذ
 فقط ؟

الآن فليحس منه ما شاء . وأعاد الكرة وهو يعني نفسه
 بحضور الإمبراطور إلى الحفل ، حتى يستطيع أن يتهمز القرصة
 التي كان يترقبها على الأقل .

وبينما كان واقفاً يتأمل أحد « الحواة » وهو يقوم بالصباحة
 السحرية الأخذة بالآلياب ، شعر بلصة رقيقة على ذراعه ، فلففت
 ليرى ليفونيا ، إحدى وميفات الأميرة ، ومعها تقول له هامة
 . بعد القروب بساعة ، عند باب الحديقة الصغرى .

وأسمعت بالاختفاء بين جمهور النظارة خشية أن يراها أحداً
 وهي تتحدث إليه .

إن ليفونيا فتاة بارعة الحس ، ولكنه لم يستجيب إليها .
 إن لديه من المهام ما لا يسمح له بأن يقف أوقاته مع الحسن .
 كلا . إن خير ما يفعله في تلك اللحظة أن يستقل مربته ويتنقل
 بها . إن أحداً ما لن يكتشف غيابها . إن أحداً ما لا يهتم بوجودها .



ومنمعا كان يتناول طعام افطاره في اليوم التالي ، انقل عليه
 جيريتيوس بأسئلته . كان يريد أن يعرف كل شيء ولم يجمع
 التفاصيل . قال له كونستانتيوس ليرضى فضوله :

— لم يكن الحفل بالصورة التي تتخيلها . ولم يتحقق لي فيه
قوة من أماني . فماتريوس كان متهرب مني ويتعاضى الانفراد
بي . والاميرة كانت مولية كل اهتمامها للطاووس الذهبي فابتنوس
والامبراطور لم يشرف الحفل كما تتيات كنت بهذا .. وقضيت
وقتي احتسى كميات كبيرة من النبيذ حتى ضقت ثوبها بكل شيء
وأخيرا قررت أن أقفل راجعا قبل الغروب فلوكا الحفل ومن فيه .
وبعد أن استبدلت ثيابي وتناولت عشاءي ، قرأت قليلا ثم أويت
إلى فراشي ؟

— أسخف تقرير عرض على . ألم تخف شيئا خيرا ؟
— كلا . هذا كل ما كان فعلا . اللهم إلا من أشبه أخرى ليست
بذات أهمية ، « كالحاري » الذي يستعرض ألغاه البحرية وكذلك
الفتاة الجيلة التي طلبت مني أن أقابلها بعد الغروب بساعة .

— ولماذا لم تطع إلى الموعد الذي حددته لك ؟
— كنت مشغوف الزواج . ثم أنك تعلم أنني رجل متزوج .
— ومن عساه تكون تلك الحبيبة ؟
— أنك شديد الفضول .

— هل لك في أن تعيد علي مسامعي ما قلته لك ؟
— لقد لمست كواشي مرافق يمشي كنت أشاهد الألعاب البحرية
وقالت لي بعد الغروب بساعة ، عند باب الحديقة الصغير ..
ثم اختفت بين الجموع .

— وهل كلفت هذه السيدة من وصفات الشرف ؟
— أجل . وهل في ذلك من غير ؟
— يا الهي . ما أريد بلاعتك يا لك من فر أحق ؟
— ملأ دهك ؟

— دعني أنا أيضا النافل ؟ ألم يتبادر إلى ذهنك أن هذه الفتاة
لم تكن بالكثير من رسول اليك ؟
— ما .. ملأ تقول ؟

— أن وصفات الشرف لا يجرمون على شيء من هذا القبيل
لحسابهن الخاص . لقد بلغت هذه الوصفة رسالة سيدتها الأميرة

كذلك ، وأنت لم تستطع بمالك الذى علاه الصدا أن تعود ذلك ،
فاسرعت بالتصريف وقلت واجمعا لتفرا وتنام . لملك نعمت
بقراءة طيبة .

- ولكنها كانت منصرفة عنى طوال الحفل . كانت موجهة كل
اهتمامها الى فالينيوس ولم توجه الى كلمة واحدة .

- وهذا بالذات ما يؤكد لى أن الرسالة كانت منها . انها
عمدت ذلك لتصرف الأنظار عن حقيقة اتجاهها . يا لضيعة قائد
الحملة الى بريطانيا .

- ليس هذا من مستلزمات القيادة بحال ما .
- أنك جعلت منها بتصرفك هذا مدوا لك . لقد واتتك الفرصة
على سحاف من فضة ، ولكنك اعرضت عنها ، فضاعت منك قيادة
الحملة الى بريطانيا .

ومن ذا الذى سيحتل مكانى ؟ انهم لن يوفقوا الى القائد
الكم الذى ...

- لن أجيب بشئ الآن . سأتارك الرد للأحداث نفسها .
وكان تيرنتيوس معتقا مقيظا .

وتولت الأيام فعلا مأمورية الرد على سؤال كونستانتينوس
لصديقه ، حين صدرت الأوامر بتعيين ماركوس فالينيوس قائدا
للمهمة البريطانية . وأدرك كونستانتينوس أن صديقه كان على حق .
ثم تكن المكفأة كل شئ . هناك أشياء أخرى تقرر مصر الأفرا
بوالدول .

والى المتشعة الكبيرة الموجودة فى كمرته ، جلس القائد المنسوج
يتأمل الخريطة التى كان يعلها تقهر كلروسيوس القاصب المتمرد .
جلس يتأملها وقد استغرق لى تفكير عميق مضى . أو بعد كل هذا
الانتظار الطويل ، وبعد كل تلك الجهود المتواصلة ، ينتهى الأمر على
هذه الصورة ؟

هكنا قضت تروة امرأة على كل آماله وآمال الامبراطورية
أيضا . . وهكذا تقرر مصائر الامبراطوريات الكبرى . هل
سيكشف التاريخ ذلك فى يوم ما ؟

- ٧ -

- تبينوا خطواتكم جيلا . ان الصخور ملئت قدسيدة
الانلاق ؟

بهذا طر ميلادى المتبعين خطاه .

- هل انت بخير يا قسطنطين ؟

- اجل يا اماء . . كل شيء على ما يرام .

وسرفافونوس من روح الصبي العالية . وكاتا يعاونان معا
القائد كوديرو على صيوط المنحدر انصغري .

كان البحر يهدر من تحتهم ، والقمر يطل عليهم بوجهه الساحر
من خلال السحب ، فيعينهم على لمس مواضع اقلامهم .

- هل تستطيع ان ترى القلوب يا قسطنطين ؟

- كلا يا اماء .

- اين المشعل ؟

- معي يا اماء .

واوقد الصبي المشعل ورفعته الى اعلى وبعد ان تقدموا قليلا
صاح قائلا :

- اننى استطيع ان ارى القلوب الآن .

وهنا انبرى القائد كوديرو قائلا :

- لدى كلمة تتردد على لساني ليريد ان اشرح ضميري بطلاقتها

من بين جوانحي التي تحتس فيها .

- لقد قمت يا سيدتي بالمعجزات . اننى لم اصادف في حياتي

امراة من طرازك . لقد جئت الى محمية بي ، فاذا بالوضع ينقلب

واحمى انا بك . ولولا رحالك ولولا ميلادى لما احتديت مثل هذا

القارب . تمكنت من الاقلاع الى روما .

- مسافر في رعاية الله . ولا تنسى ان تشرح للاميراطور كل

شيء • انك غير مسئول عن فشل الحملة - • ان المسئول هو
فابيتيوس بسوء تقديره وقلة بحاربه • قل للامبراطور انه لو
يسترد بريطانيا الا بواسطة قائد محتك يعرف كل شيء عن هذه
البلاد • قل له ان كونستانتيوس هو هذا القائد الذي هو بحاجة
اليه في مهمة مثل هذه • قل له انه كلما حصل بهذا الامر • كلما
كان في ذلك الحيز كل الخير لروما • لقد بذلنا أقصى ما في وسعنا
ولكن الحملة الاسامية فشلت ولم توفق فيما آتت من أجله •

وحاول كل من هيلاري وفافونيوس تثبيت القارب الى الصخرة
التي كانوا يقفون عليها • وكان بالقرب ستة من البحارة • الذين
لفاتوا القائد كورديو على الهبوط اليه • وما ان استقر به حتى
رفع يده محيا وهو يقول ؟

- وعتك الإلهة يا سيدتي •

- في حفظ الله • يمكنك الاعتماد على هؤلاء الرجال • لقد
عنى هيلاري بأرشادهم وأحاطهم علما بما يجب ان يقوموا به •
انهم حقا من المهرين • ولكنهم سيبدلون أقصى ما في وسعهم • حتى
تتمكن من الرسو بالقرب على شاطئ فرنسا • لا تنس أن تبلغ
زوجي حين وضيائي ؟

- وداعا يا قسطنطين • سأخبر والدك بكل ما كان منك •
وسأطمئنه انه سيجد فيك خير رجل عند عودته • وداعا سيدتي •
وداعا هيلاري • وداعا فافونيوس •

وانطلق به القارب مجرا • ووقفت الجباة الصغيرة على
الصخرة ترقب القارب حتى اختفى عن أنظارها • ثم شرعوا
يحملون الصخور في طريق العودة • فافونيوس في المقدمة •
ومن بعده قسطنطين • ومن بعدهم هيلينا • ثم هيلاري في
المؤخرة • ولم يلقوا في صعودهم ما لاقوا من عناء في هبوطهم •
وما هي الا ربع الساعة حتى كانوا قد بلغوا قمة المنحدر حيث كان
يتقظهم روفوس بالجياد التي أقبلا بها •

- هل من جديد يا روفوس ؟

- كل شيء هاديء يا فافونيوس •

واعتلوا ظهور جيادهم التي انطلقوا بها الى الضيعة المنعزلة بعد مسير ساعة على ظهور الجياد . وعندما قابلهم رجل كهل يرتدى حلة زرقاء انظم اليهم تنظيلا صهوة الجواد الذي كان يستطيع كوريو عندما ذهبوا به الى الشاطئ . واستأنفت الجماعة سيرها في صمت وسكون . كانوا ستة أشخاص في ذعابهم . وهم ستة في عودتهم . ان لكاروسيموس عيونا كثيرة تتطلب من المروءة المزيد من الإحتياط .

ومد أسبوعين عادوا الى البيت الصغير القائم عند مشارف مدينة فيرلوم ، حيث كانت تقيم « الأرملة زينا » وولدها . ولم يكن احد ليعرف عنها الكثير . . . فيما عدا انها قد قدمت من مكان ما بالاصقاع الشمالية ، وبرفقتها ابنتها الوحيدة ، وهيلارى . ورجل قوى الينيسة يدعى ماركوس (لأفونيوس) ، وروفوس ، وبصر الحزم .

وكانت الأرملة زينا تحيا حياة حادثة منعزلة . حيث كانت تقضي أوقاتها في العناية بحديثتها وبجياتها التي كانت مشرمة بها . وكان يعاونها في ذلك البستاني ماركوس .

وكان من المستغرب ان تصد السيدة البصيلة المحترمة الى تضييع حيثة صفار الحزم في فيلثها الأنيفة من وقت الى آخر . الأمر الذى حدا برئيس البوليس في فيرلوم ان يتحرى الأمر كله . وقد بين له من تحرياتة ان هذه السيدة من أصل غريق . وانها تدفع المستحق عليها من ضرائب بانتظام ، وانها تحلف على الفقر . كما انها لا تحتفظ الا بخادمتين متقدمتين في السن بصفة دائمة . أما الأحرىات فلم تكن تحب الاحتفاظ بهن بالمنزل كثيرا . . . وهو تصرف سليم عندما يكون بالمنزل ابن قى الساعة عشرة من عمره .

وتناقل القوم في الناحية ، ان هذا الابن الشاب كثيرا ما كان يورى في صحبة مينرفينا الصغيرة ، التي كانت تقيم مع والديها في الفيلا المجاورة لهم . ولم يكن ذلك يكثر من تلك الأقاويل المتأنهة التي يحب القوم أن يثقلوا بها . فقد كانت هذه الفتاة

صبيبة لم تتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمرها • جميلة رفيعة ذات عيتين سوداوين كبيرتيه *

قال هيلارى لسيدته مختبئا حديثه معها :

- لا داعي للقلق فى الوقت الحاضر على الأقل • لقد التقيت برئيس البوليس ، روتيلو ، وتبادلنا معه حديثا طويلا • وهو لا يستطيع أن يخفى ما يجول بخاطره • ولم آتبع من حديثى معه أنه يشك فى امرنا • لقد قضى كل من تراكس وبوليس معيهما دون أن يتكلموا بشئ • ان شبكتنا لم تزل سليمة محكمة لم يعثورها خلل • اما الى متى ستظل كذلك ، فهذا هو السؤال ؟
فرفعت الارملة زينبا ذقنها الى أعلى فى اصرار وكبرياء ابنة الملك كويل قائلة فى نبوت قوية لا تعرف الوهن :

- ان الامر سيظل على هذه الحال حتى يقبل زوجى • وانه ليسرنى اننى لم اصمد الامر بالهجوم قبل الاوان • والفضل فى ذلك يرجع لك يا هيلارى • وليس لى *

- لقد عارضتيني فى ذلك لول الامر • حتى تأكدت من أن كونستانتيوس لم يكن قائد الحملة • ولقد كان من حسن حظنا أننا تداركنا الامر قبل فوات الاوان • ولسوء حظنا أيضا انصح ان كاروسسيوس ليس بالرجل الذى يستهان به • انه يثبت لأقدامه فى هذه البلاد • بعد أن قضى على الاسطول الامبراطور • وعاونته فى ذلك المرافف والانواء • انه يثبت لأقدامه ويوطد لحكمه بالمعجة والخوف معا • ويمكنك أن تتبينى هذا من نتائج حكمه فى هذه السنوات القلائل • لا • لا تعينى فى وجهى يا سيدتى • اننى أعرف أنه مقتصب يجب أن تقاومه وأن تقاقله • ولكن من الخير لنا ألا نقاتل من شأنه • فاننا ان فعلنا هذا لمسأنا الى أنفسنا بالاستهانة بقدره • يجب علينا أن نعرف عدونا على حقيقته • حتى نعد له من جهودنا ما يتكافأ مع قدره *

فابتسمت واضية قريحة العين بما سمعته منه أخيرا قائلة :

- انك دائما على حق يا هيلارى • انك هدية والدى حقا •
والذى الذى أدرك عند وفاته ما احتاج اليه فعلا ••

« وهذا شأننا جميعا ، أو شأن من قرئى عنهم الآلة »

وخاضنا فى حديث طويل عن امكانياتهم ، وعن احتمالات المستقبل ، وقصدنا أن كوزيو لا بد أن يكون فى روما فى تلك اللحظة التى يحدثان فيها عما يمكن أن يقوموا به بتنظيمهم القليل المسد عندما يجد الجند - وأشار هيلارى الى جماعة المسيحيين التى انضمت اليهم - قتالت له هيلينا أو الأرملة زينا (الاسم الذى اختارته لنفسها متخفية ، مؤثرة اياه على غيره من أسماء ، لأنه تصغير لاسم زينوبيا) :

— اننى لا أرجو منهم الكثير فى القتال ، إن معظمهم من النساء والأرقاء والمستضعفين »

غزم هيلارى شخصيته متأملا ما بين قدميه :

— لست واثقا من ذلك ، لقد رأيت منهم عجبا ، وأحلت يعطى ثأريتهم . اللهم يضحون بأنفسهم فى سبيل مستعصاتهم . وهم يؤمنون بصاحب السلطان وبالقاتلون . كما أنهم لا يشعرون ضد أولى الأمر منهم . فهم دائما فى صفهم . وهذا هو السبب فى أنهم فى صف روما ضد كاروسيموس ، الذى يعدونه مفتعبا متمردا .
— لقد انضموا اليها فى أشد لوفات حاجتنا اليهم .

بهذا آمنت هيلينا على قول هيلارى .

وأطرق ميلارى برأسه موافقا على ما قالت هيلينا . وراح يستعيد ما كان من جماعة المسيحيين عندما كانوا يعيشون فى غابات الأقاليم الشمالية . وذكر لها كيف كانت جماعتهم تنلهم بكل ما يحتاجون اليه من طعام وشراب وغير ذلك من مطالب الحياة الضرورية . لقد كان كل ذلك قبل أن يلتقى بالبانوس .
وعنده أن اللقاء بالبانوس يعتبر نقطة تحول فى حياة المرء .

— ألم ترد اليك أية أنباء عن صديقك البانوس ؟

فتأملها هيلارى فى دهشة . لم اجسم قائلا :

— اننى إنسى أحيانا أنك ابنة الملك كويل . لقد كنت انكر فيه عندما صالتينى عنه .

وتطرفت أذاهما وقع خطوات تقبل بسرعة في اتجاه القرية
التي يجلسان فيها . واندفع فسطاطين من باب الخرفة قائلا :

— أمام ، هيلارى — أتياه مشوة !!

فصججه أنه بنظرة قاسية قائلة :

— مهما يكن من أمر هذه الأنباء ، فإن ذلك لا يبرر إتهامك
الخرفة هكذا . لقد شجبت عن الطوق ولم تعد مطلقا .

إنها لا تترك كبيرة ولا صغيرة إلا بصرفه بها .

— اتقى جد آسف على « بدر متى » مشوة يا أمام .

— والآن هات ما عندك !

— إن كاروسىوس فى طريقة الى هنا الانحاء ، وسيسير يقولوم
بعد ظهر الغد .

قلعت عيناهما ببريق خاطف ، ولكنها تماكنت نفسها قائلة :
— من ذا الذي أتياك بذلك ؟

— أولوس سكاوبولا . لقد سمع بذلك من المحافظ نفسه .
وهم يعدون العدة لاستقباله . ويودى لو أتى نظرة عليه .

— هل التفتت بمينرفينا ؟

بذلك أراحت أن تحول دفة الحديث .

— أجل يا أمام .

— فلنضع نصب عينيك أنها من أسرة كريمة لها قلوبها .
وإن لقلبها للتكرار لها قد يسهل اليها . وأن من شأن هذا اللقاء أن
يتبع القيل والقال عنهم وهنا . ولعلك تذكر أنني لا أحب أن
يتحدث الناس عنا كثيرا . لا . لا أحب أن أسمع منك شيئا
الآن . فكر فيما قلته لك ثم حدثني برأيك فيما بعد . والآن
فلتصرف وتكرركنا لنتم ما كنا نتيادل الحديث فيه .

وتأملها هيلارى بعد انصراف ولدها . تأمل هذا الوجه الجاد
الجميل . وتأمل هاتين العينين الساحيتين تعكس تفكير صاحبهما
قيما هو أحل وأخطر من علاقة ابنتها الغرامية . أنه يستطيع أن
ينفذ الى أعماق ما يدور يخلعها فى هذه اللحظة بالذات ، بعد

أن سمعت نبا قديم كاروسيموس . وأنه ليلذكر ما قالته له من قبل ، عن أن حكم كاروسيموس يعتمد قوته من شخصية ركاروسيموس العظيمة ، وأنه لا يوجد قيمن حوله من هو جدير بأن يحل محله . - ترى فيماذا تفكر ؟ -

تقلعت الحوكب ثلة من الفرسان ، عندما أكثر من ماثنين بغيابهم الزاهية وحلهم للزركشة ودروعهم اللامعة وحذاتهم العالية . وكانت الطرقات متطلّة بالورود والرياحين ، وشرفات المنازل تسج بجمهور الراغبين في معاينة هذا الركب العظيم .

وفي أعقاب ثلة الفرسان مورت عربة من الطراز الفرنسي . يحيط بها خسون فارسا من خيرة الفرسان . وبعد ذلك أتبلت ثلة أخرى من الفرسان لا يقل عددها عن الثلة التي سارت في المقدمة ، وفي أعقابها عربة فرنسية أخرى .

ووقف الشاب في لرجة الباب يحكم تسديد قوسه . وعندما أوشك أن يطلق سهمه ، شعر بيد غليظة توضع على كتفه وبالأخرى تمسك بالسهم ، وسمع صوتا مالوفا لديه يقول :

- لا جدوى من ذلك يا ولدى ، ليس هذا الرجل برجلك . -
- فاختيروس !!

بذلك همس فسططين ثم استطرد قائلا :

- تعنى وشانى ، لقد كنت أنال منه . لماذا فعلت ذلك ؟ -

- أثبت يا ولدى ، ألم يدرك بخللك أنك بعملك هذا متعزضا بجميعا لنسجن والتشريد ، بما فى ذلك والدتك ؟ -

- كيف جرؤت على أن تتجسس على ؟ -

- عندما أتيت أن قوسا من خير ما تحتوى مجموعة سلاحى قد نقص منها وعندما أشعر بأنك قد خرجت متسللا دون أن تحظر أحدا ، أتجرك لأجلك واستعيد قوسى . - لقد جانيك التوفيق وتكتيك طريق الصواب فيما كنت بمسبيل ارتكابه من خطأ حسيم لم يكن من شأنه - سواء تم أو لم يتم - إلا أن يصعد بالويل

والتيور علينا جميعا . ثم ان هذا الرجل الذي كنت تستعد اليه
سهلك لم يكن كاروسبيوس . انه كان الليكتوس ؟

نـ وحتى لو صح ذلك . أولا يستحق الليكتوس القتل . او
تسيبت ما فعله بنا منذ أربع سنوات ؟

— لقد نال جزاءه مني . ولكنك كنت مستقدم نفسك لقصة
سابقة لهذا الخشد من الجنود . اعترف مني بانها كانت نزوة
صبيانية !

ومن نافذتها بالطابق الأول . وقفت هيلينا تطل على الركبة
ووقف هيلاري يتأملها ولا تتحرك عيناه عنها . انه يريد ان يتقدم
الى امهات نفسها .

— يا للطاغية الجبار ! ان له رأس لور ومنق خنزير . . اني
لاذكر قول والدي عنه .

— ترى ماذا كان يقول ولذلك عما يجول بخاطر الان ؟
— ان راكب البحرية الثانية هو الليكتوس . . لقد فقدتجا من
الموت وشفي من جراحه .

— لقد صبح رجلا عظيمسا . ويقول البعض عنه انه الرجل
الثاني في الدولة . ولكنه ليس له من الصفات التي تؤهله للمظلة
والقيادة والشخصية الطاغية .

— إذن ، فلا يوجد بعد كاروسبيوس من يشغل منصبه ؟
— بوندي لو اقلعت عما تفكرين فيه .
— انك تحب الملوحة أحيانا ، اليس كذلك ؟
— انه الجنون بعينه . ان ما تفكرين فيه هو القتل مهما كانت
مبرراته واسبابه .

فاستدارت اليه قائلة في غضب محتدة :

— كيف تجرؤ ؟

فرجع هيلاري امامها مستغفرا :

— سامحيني يا سيدتي . ان من واجبي ان ابصرك بالأمور .
— انقض . انني اكره ان ارى امامي رجلا على ركيتيه . انقض
ولا تلجأ الى اثرة غضبي الثانية .

ولمض الرجل مثاقلا وهو يقول:

- بحسن بنا عندما يستشكل علينا امر من الأمور، ان نحاول
تصور ما كان يمكن ان يقول فيه رجل ثقي في حكمته وسداد رأيه
واننى الآن افكر في والده، وفي الباتوس .
- الباتوس ! او أصبح قدوة لك الى هذا الحد ؟ ترى هل
أصبحت مسيحيا ؟

فتردد الرجل قليلا قبل ان يجيب :

- لست ادري يا سيدى . لاننى لم اتجن بعد حقيقة امرى .
ليس الامر بهذه السهولة فهناك الكثير من المسائل التى لم افهمها
بعد . ان الظروف لم تسمح بان التقى بالباتوس كثيرا .
- ترى ماذا كان يقول والذي من حالتك هذا ؟

- وهذا هو نفس ما أردده بينى وبينى . لبطلا تسألت
غير مرة عن ذلك . بل وانه ليحزننى ان الاقلتر لم تسمح بان يتم
التقارب بين الملك كوريل والباتوس هذا .

- لا جدوى من مثل هذا الحديث . دعنا منه الى ما يجب ان
نفكر فيه . فى قضيتنا التى يجب ان نكرس لبا حياتنا وكل تفكيرنا
فى روما . فى كلروسيوس الذى سيقتضى بضعة ايام فى قصر
المحافظة . فى الأرملة زيتيا التى يمكن ان تحصل على اذن
بمقابلته .

ورفع هيلارى سبابته الى شفتيه مطبرا : بعد ان سمع وقع
أقدام مقبلة فى الردهة . وبعد قليل اسبأ من أحد الخدم فى
الدخول ولما أذن له اخطر سيده برغبة فافويوس فى مقابلتها :
فقال له :

- دعه يدخل .

وما ان وقع نظرها على وجهه المتقنع ، حتى اكتمت حديثها
دهشة وترقباً . وكرهت فافويوس حتى انشد الخادم لم قال
بصوت أجش :

- لقد شاهدت جملة من الفرمان يرون بمنزلنا . كلا . كلا
انهم ليسوا من القوات المرافقة لكلروسيوس . وتبينت بينهم ثلاثة

من الضباط الرومان في حلهم الرسمية . ولقد تعجبتم .

— ضباط من الرومان .

— أجل يا سيدتي . قائد وضابطان . أما الآخرون فكانوا من
وجال حاشية كلروسيوس وجرمه الخاص .

— حاشية كلروسيوس ؟ كاني به قد صار ملكا .

— أخشى أن تكون هذه هي الحقيقة . . لقد تبعتم حتى لحقت
بهم وسألتم عما إلى بهم إلى هذه الناحية . تتنازل أحدهم بالرد
على قائلا : .

— افصح الطريق أيها الخنزير . أن هؤلاء الأسيد قد حضروا
موقدين من قبل روما للاعتراف بقائلنا كإمبراطور لبريطانيا .

— هذا غير صحيح . لا يمكن أن أصدق شيئا من هذا القبيل .

— وأنا أيضا لم أصدق ذلك . ولكنني عندما رفعت يدي إلى
القائد الروماني مستفسرا ، أوما الرجل موافقا . .

— روما ، روما . . يا لضياعها .

— وبعد النبيل أن يرقع صوته وهو يحدثني بذلك ، حتى

يسمعه كل الناس . لقد انتشر الخبر في جميع أنحاء المدينة .

— كلروسيوس إمبراطور بريطانيا ؟ وإقرار من روما . لا بد

وأن زوجي قد قضى تحبه .

وبالرغم مما جاهدت به هيلينا لتتخلى آلامها وتبالك نفسها ،

إلا أن كل كلمة نطقت بها ، وكل خالجة من خباياها وجهها ، كانت

تنطق بالألم الدفين الذي تعتمل به نفسها .

الجزء الثالث : ٢٩٤ - ٢٩٦ بعد الميلاد

كانت برينطانيا كلها ، في شغل بالأعداد للاحتفال بالعيد السابع لحكم كلروسيوس . نعم ، العيد السابع لحكم كان كلروسيوس في ثلاثة أعوام منه امبراطورا لبريطانيا .

وكان المكان الوحيد الذي بدا أنه لا يشترك مع القوم فيما يعدون له ، هو قصر الامبراطور في لندن . وكان كل من في المدينة يعلم ان هذا الحف الفطويل من التوافد بالطبق الأعلى ، هو جناح الامبراطور الذي اختاره ليباشر فيه مهام منصبه ، مواصلا الليل بالنهار ، دون كلل أو ملل .

ولم يكن من غير المألوف أن يعقد وزير الخزانة اجتماعا قبل منتصف الليل بساعة . كما لم يكن من غير المألوف أن يصطحب الرجل معه رؤساء المصالح المختلفة وكبار موظفي وزارته . لقد كان هذا من الأمور العادية في بلاد كلروسيوس .

وما أن وقع نثر بوديسار : حارس الامبراطور الخاص عليهم حتى قال متبهما في صوت غير مسموع :
« مصابة مصابي القمامة » .

ودخل الأمين الخاص تيودريك غرفة مكتب الامبراطور ليعلن قدوم الوزير وابناؤه . ثم ملا بعد قليل ليطالب الى الوزير الدخول بعقرده . وبعد أن دخل هذا الى مكتب الامبراطور ، همس الأمين في اذن الحارس الخاص قائلا :

« ما كنت أحب أن أحل محل اليكتوس في هذه الليلة . ان امصائب الامبراطور متوترة : منذ أن قدم هذا الرسول بتلك الرسالة التي ملها اليه شخصيا » .

« ألا تعرف شيئا من هذه الرسالة » . اظن انها كانت تنقل اتباء مميثة وتكثر بالثامب » .

وكان اليكتوس في الوقت نفسه ، قد تقدم من المنفذة التي يجلس اليها الامبراطور ، وادى له التحية الواجبة . غير ان

كاروسيموس لم يره أى التفات ، ولم يركع حيثه عن الرسالة التى كانت بيده .

وظل الليكس واقفا فى مكانه لا يتحرك . وكان يتأمل من هذه الرسالة التى تبدو قصيرة فى حجمها ، والتى استغرقت من الإمبراطور كل هذا الوقت فى قراءتها . أم لعله يعتمد ذلك اعتمادا منه فى الضغط على أعصاب الليكس . ترى ماهو مدى ما اكتشفه من معلومات عنه وما اطلع عليه من حقائق .

إن ذلك لم يعد يستيه فى كثير أو فى قليل . لقد أعد عدته ورب أمره ، وأحكم وضع خطته . وانسيرا ، رفع كاروسيموس رأسه إليه قائلا :

— سأوجز لك القول ، فلدى الكثير من المهام التى لا تسمح لى بالإطالة معك . لقد رفعت الى الكثير من الشكاوى . ولقد تجاوزت منها لآلها عند رجل أحبه واثق فيه . ولكننى لا أستطيع أن أمضى فى هذا الى النهاية . ففقت بتقصى الأمر بنقسي . — هرقت ذلك يا مولاي .

— هكذا ؟ إذن فهنا ييسر الأمور . لقد تجاوزت فى جمع الضرائب الحدود المرسومة لك بمراحل . ولن أسألك عن مسر هذه الأموال لأننى أعرف فى أى باب أنفقت . — فى أى باب يا مولاي ؟

— فى إعداد جيش خاص بك قوامه خمسة آلاف مقاتل . إن هذا الجيش سيسرح قويا ويتزع منه سلاحه ويقطع عن بريطانيا لى مدى أسبوع على الأكثر . — وهل أنت واثق من إمكان تنفيذ ذلك ؟

وكانت ابتسامته الصفراء أكثر من أن يحتملها الإمبراطور الذى نفض عن مقعده قائلا :

— كنت أعرف عنك التنوير والحق ، ولكننى لم أكن أتصور بحال ما أن حمقت يدفك الى هذا الحد من الوقاحة . لقد أردت أن أجنبك مواقف حمقك وتهورك ، ولكنك زدت الأمور تعقيدا فلم تنتج لى ذلك . — لوديمار .

وكان الامبراطور مهتاجا متفعلا تنطايير حيناه شرراً وهو ينادى
هلى حارسه العملاق « ليوديمار » .

وكان صوته وهو ينادى حارسه ، كرر الاسد قوة واقتداراً .
ولكن حارس الامبراطور الخاص لم يجب النداء . وسمع
الامبراطور قى الفرفة المحقة بشرفة مكتبه جبة وضوضاء . ولاحظ
أن الليكتوس لم يزل ينسم تلك الابتسامة الكريهة البغيضة . «
وأدرك كارومبيوس منها كل شىء » . وامرعت يده الى المنضدة الصغيرة
حيث وضع سيفه . ولكنه لم يجعله وشى فى الوقت نفسه بل حاد
فى جنبه ، فاستدار ليتلقى الطمئة الثانية من الليكتوس . انزعج
وسقط على مقدمه الذى كان جالسا عليه من قبل . وسمع الليكتوس
يقول له :

« من منا الأحق ؟ لقد قمت بما كان عليك القيام به - القتال
والعمل على استتباب الأمن والنظام فى البلاد - والآن جاء دورى »
دور رجل السياسة والحكم .

وكانت الضجة فى الفرفة الأخرى قد سمكنت فاما ، وأدرك
الليكتوس أن المقاومة قد انتهت . وهل يمكن لليوديمار أن يقاوم
خمسين من الرجال المسلحين المترين بزي المدنيين القتل الحارس
الحراس ، وقتل الأمن الخاص ، وتم حصار القصر برجال فى هذه
اللحظة بالذات .

ووقف يتأمل الامبراطور وهو يلتفت انغمسه الأخيرة وراءه بالرغم
مما يجتازه من صفة ، يتنسم فى وجهه سائرا عسفا . ترى ماذا
يحمل هذا الرجل المحتضر على الابتسام ؟ تلك الابتسامة التى اعترى
على قمرها تهفة عالية تميز أركان القصر بل المدينة بأسرها مسخرة
ومشفيا . وحاول الرجل المحتضر أن يتكلم ولكنه لم يستطع ، حيث
تفجرت البلاء من فمه وقاضت على الأوراق الموضوعة على المنضدة .
وأخيرا امتطاع الامبراطور أن ينطق بهذه الكلمة بكل صعوبة :

« أحق !

ثم قاضت روحه » .

وتنفس الليكتوس الصعداء . لقد تمفق له النصر . ولكنه عاك
ليجندق فى الوجه الذى اكتسب بصفرة لوت ، وراعه أن الابتسامة



الساحرة المتهكمة لم تزل تعلق شفتيه الباهتين • فالترب من جثة
الامبراطور في حذر وكأنه لم يزل بعد على قيد الحياة • ووقع بصره
على يد الامبراطور التي لم تزل ممسكة بالرسالة التي كان متسافلا
يقراها عند دخوله • وكانت يد الميت قابضة على طرفها في وضع
يوحى بأنها أعدت له ليقرأها ويطلع على ما فيها ، وانحنى ليقرأ تلك
الرسالة • وما أن فرغ من الاطلاع على ما بها ، حتى حاكى وجهه وجه
الرجل الميت في صفوته • ولم يستطع أن يسقط صرخة النحر التي
انطلقت من صفوه •

وما أن سمع الموجودون خارج الغرفة تلك الصرخة حتى افتحموا
الغرفة متدافعين • وما أن وقع نظرم على الجثة الامبراطورية في
مقصدها ذي المسندين في صورة الأسد ، وعلى الليكوسر وقد
استقرت عيناه على الرسالة التي راح يتلوها ويمد تلاونها ، حتى
تسمعت أقدامهم حيث كانوا واتسعت حدقت أعينهم دهشة وعلماء •
انها كانت تحمل اعلان روما الحرب على بريطانيا •

- ٢ -

بعض متون ضابطا من كبار القواد ، متعلما دحا القيصر حكم
القيادة • وبعد أن رد تعييتهم ، اتخذ مجلسه في صدر المجلس المقود
لواژه له • وكان حاملو الاعلام الأربعة ، الذين وقفوا في الخارج •
يشبهون على أن روما في هذه المرة ، لم تدخر وسعا في حشد
ما لديها من قوات لاعادة غزو بولونيا في بلاد الضال •

وتناول مجلس الحرب المتعقد تحت رئاسة القيصر ، فيما كان
يعده من خطة محكمة لغزو بريطانيا •

وكان من المشاهد أن هذه الحملة ، فضلا عما زودت به من مدد
وعتاد ، امتازت بأنها تستمد قوتها من محبة رجالها وبناتهم في
لخدمة شخص القيصر ، زوج ابنة امبراطورهم مكسيميانوس ، ومن
لئلا بكل صغيرة وكبيرة عن بريطانيا وعن نتائجها وطبيعة شواطئها •
لها كان من السهل التآمر في اهالي بولونيا بعد مقتل امبراطورهم

السابق كاروسينوس واحتلال قاطه اليكتوس الصربي . اليكتوس
الذى لم يحظ بما كان يحظى به كاروسينوس من محبة واحترام ،
ولدت في هذا المجلس الأخير جميع الاستعدادات لغزو بريطانيا
وقهر اليكتوس في مئرداره . ورسم القيصر خطته على أساس أن
يبدا الغزو عندما يحل الظلام ويتكاثف الضباب قتالا لقواده ؛

— أن خير هجوم هو الذى يكون فى ماعة لا يقتل العدو لها
ذلك . عنصر المعاجاة والمباغتة هو خير سلاح فى يد الجيش الفارسى .
فلتربوا انتشار الضباب وتخطرونى بذلك حتى أصعد أسمى
بالهجوم ؛

ثم توقف القيصر قليلا ، ووجه كلامه الى القائد اسكليبيوداتوس
قاتلا ؛

— يجب أن تعمل النصارى جميع السفن بسد نزول جميع
القوات على الشاطئ . ويجب أن يعرف الجميع ذلك ، ضباطا
وجنودا . أننا مستعدون شواطئ بريطانيا لتوغل فى البلاد ونستقر
بها . لا تكوس ولا عودة ولا تفكر . هذه السفن يجب أن تحرق
من آخرها .

وابتسم القيصر لما لاحظته على وجه الحاضرين من امارات
الدهشة والعجب . ونهض محيا فى طريقه الى الخارج ، حيث
امتلى صهوة جواده يتبعه مساعده من الضباط الشبان الذين
كانوا يشتعلون حماسا ، ويمثلون خيرة ما فى العالم كله من ثقافة
عسكرية ودراية بفنون القتال .

وعندما توقف عند مقرة الرسمى ، وسأل عن زوجته ، أخبره
قايمة الخاض بان الأميرة فى انتظار القيصر بغرفتها الخاصة .

وكان باديا من تحية مساعديه له وهو يلف الى مقرة ييلان
القتال ، أنهم يحبونه محبة ترتفع بهم الى حد التقديس . وكان فى
ذلك ما يكفى لأن يخلل السرور على قلبه وترتاح له نفسه . ولكن
وجهه كان يكسى بمسحة من الحزن ، عندما كان يخطو صوب
الغرفة التى تنتظره فيها تيودورا ، زوجته .

كان البيت على حاله ، لم يتغير فيه شيء إلا بقدر ما مرت به
بد الزمن ، خلال تلك السنوات العشر الطوال .

أجل ، عشر سنوات . أنها لا تستطيع أن تصدق هذا ... أن
الامر يبدو وكأن كل شيء كان بالأمر القريب .

وراحت هيلينا تتجول في أرجاء البيت من حجرة إلى حجرة
ومن ركن إلى ركن ، تطوف بها ذكريات الماضي مع كل خطوة
تخطوها .

هاهي ذى تعود إلى عشها الذى اضطربها الظروف لأن تجو
هذه . لن كل ما فيه يطلها من الماضي ومن فترة سعيدة من
حياتها . الماضي ؟ ... أى ماض هذا ؟ أنه تلك الايام العشرة التى
لم تكن غير حلم ثقيل مزيج . ان حياتها فى هذا البيت متصلة .
لقد رحل كونستانتينوس إلى روما ، وهامو ذا يعود منها . انها
بمتصلة اتصال العمر نفسه .

ليس من شك فى ان اقدامها على التعجيل بالحضور كان
مجازفة فى تلك المرحلة من القتال الذى بنا لاعادة غزو بريطانيا .
أنها ما ان سمعت بأن الامبراطور اليكسوس يتجه غربا بكل ما لديه
من قوات ليجد نفرة فى خطط هجوم الرومان ، حتى بذرت إلى
العمل ، فاصدرت امرها لقوات المقاومة فى الشمال والشرق بأن
تقوم بما هو مطلوب منها حسب مقتضيات الموقف . اما هي
بوتسطنطين وهيلارى وفانونيوس ورفوس ، وحوالى المشرين من
الحكم والأرقاء ، فقد اتجهوا جنوبا . وبالرغم من أنها لا تعلم
بصفة قطعية بأن كونستانتينوس كان يقود هذه الحملة ، إلا أنها
كانت واثقة فى قرارة نفسها من أنه هو قائدها ، وما دام هو قائدها
لأن القائد اليكسوس أمر مفروغ منه .

إن كل ما كان يملأها ما هو إلا مجرد اشاعات يتناقلها الناس .

لقد بلغها منذ أربعة أيام نبأ سقوط بولونيا في أيدي القسوات
الرومانية . ثم بلغها عقب هذا مباشرة ، أن الرومان قد احتلوا قرب
بريطانيا ، في ليلة عاصفة كثيفة الضباب . وهذا ما تستبشر به
خيرا ، وما يؤكده لديها ظنونها . . . الضباب الذي كان واسطة
مخرجها الى كونستانتينوس . . . أنها ما أن سمعت من قافونيوس
أن الغزو قد تم بين أستار الضباب ، حتى تأكد لديها أن زوجها
هو قائد هذه الحملة ، فلطالما حدثها عن امكانيات هذا الغزو وعن
الخبر سبيل يمكن أن يسلكه القائد المحنك قاتلا :

مادمت القائد المنوط به الدفاع عن بريطانيا ، فإنه لزام على
أن ألم بخبر السبل لغزوها ، حتى احتياط للامر واتخذ للامر
عدته . وخير السبل لغزو هذه البلاد هو مهاجمة شواطئها عندما
يتكاثف الضباب ويبلغهم الظلام .

ووردت الأنباء بعد ظهر اليوم التالي ، عن نزول القسوات
الرومانية في الجنوب . سمع بذلك قافونيوس من بعض اللاجئين
ونقله الى سيدته ، التي ابتسمت راضية سعيدة ان هذا ما كانت
تتوقعه فعلا ، وكانت منهكة في ترتيب منزلها واعادته لحالته
الاولى من نظام ونظافة . فشد هذا النبا من عزمها ، وواصلت
ما كانت تقوم به بنشاط وحيوية لتلقب أبناء النصر والغزو .

وارتدت ازعى ثيابها لونا ، وتطعت بالبن حليهما وتقيس
مجموعتهما . وتغلقت بين غرف منزلها ، وفي طرقات حديثها ،
سعيدة مستبشرة في انتظار كونستانتينوس . . . كونستانتينوس
الذي تركها بالأمس فقط وسيعود اليها في غده . . . كما تريد أن
تقنع نفسها بهذا . . . انه لم يطل به البعد عنها . . . لم تكن لغوا
وشهورا . . . ان هي الا ساعات ودقائق .



وبدأت القوات الرومانية تمر بالطريق العام في الساعة الثانية
بعد الظهر . وكانت القوات خطبًا من الفرسان ومن المشاة ومن
التوابع وعربات القتاد . ووقف قافونيوس يتأملها فحسوا فرحا
بها . وبعد انتهاء مرور الطابور الاول ، أقبلت لفة من الفرسان

والشاة يتقدمها ضابط من الفرسان . ما إن أصبح أمام الليلا حتى
اتعرف في أعينها . وخيل لفاونيوس أنه لا يجيد الركوب ، وأن
الجواد قد جمع بالضابط قسرا عنه . فقال له متندرا :

- لقد عرف من فرسان الفيلق المسامح والعشرين أنهم
لا يجيدون الركوب . ولعلك كرهت أن تشذ عنهم .

لحذجه الضابط بنظرة قاسية ، بينما ازداد فافوتيسوس
اجتماعا وهو يقول له :

- آين كنتم . ولماذا تأخر قدومكم ؟

وأشار الضابط للظبيور آمرا بالتوقف عن مواصلة السير . ثم
رمى فافوتيسوس نظرة حادة وهو يسأله :

- من أي فيلق أنت ؟

- من الفيالق العشرين بطبيعة الحال . إلا تعرف آين أنت ؟

فلبتسم الضابط بدور قائلا :

- من الفيالق الذي كان يتخذ كلروسيوس من رجاله طعنا
لأفطارد . لعلك كنت صر الهضم فنجوت بجلدك .

وارسل ضحكة عالية ثم أردف قائلا :

- هل تقيم هنا ؟

- أنه بيت القائد كونستانتينوس .

- أعرف ذلك . أنه القيصر كونستانتينوس الآن .

- أنك جعلت لي أحسن الأبناء . يودي لو أعانك وأفانك .

- من حسن حظي أنني مازلت معتليا صورة جوادي . لقد
حضرنا لاحتل المترل والأسراع بأعداده .

- بأعداده لمن ؟ القيصر ؟

- أجل . أن قدومنا متقرب من ساعة لأخرى . بل قل من
دقيقة لأخرى . أنه سريع الحركة .

- أن زوجة القيصر تقيم هنا أيضا .

- أعرف ذلك أيضا . ولكن كيف علمت بقدومها . أن هلمنا

هر لا يجب أن يتركه أحد . فليكن ، افتح هذا الباب على مصراعيه
ومنى لا نصيح وقتاً .

— ماذا معنى بقولك أنها قادمة ؟ أنها هنا فعلاً .

ولم يجر الضابط اهتماماً ، ولم يكلف نفسه عناء الرد عليه .
وانتفتحت إلى الطابور مصفواً أمره لرجاله بالتقدم ، فأسرع
لفافونبوس بمساعدة اثنين من الخدم وفتح الباب الخارجى .

واندفع الجنود إلى الداخل ، وسمع فافونبوس فى الوقت
نفسه وقع حوائير جواد يقبل مسرعاً ، فالتفت ليرى هيلارى
مقبلاً وقد لوتست على وجهه ملامع الجوع ما لم يسبق أن رأى
كها مثلاً .

وأسرع هيلارى بالترجل عن ظهر جواده، وأقبل على فافونبوس
لأهناً . فبادره هذا متسائلاً :

— ماذا بك يا رجل ؟ فكك تبدو كمنح من الاستيحاء ! ماذا
يحدث ؟

— كل شيء . . هل علمت بأمر هذه القوات ؟ أن كورديو فى
الطريقه إلى هنا . هاهو ذا قد لحق بى ، هل تعلم ؟

— علمت بماذا ؟

وقيل أن يتمكن هيلارى من الإجابة ، لكن القائد كورديو قلما
وصل على رأس ثلثة من الفرسان . وما أن التقت ميناء بعينيه
هيلارى حتى حلق فى وجهه متسائلاً ، فأسرع هذا يقول له :

— سيدى . . إن الأميرة هيلينا وولدها بالمتزل .

واستبليت الحيرة بفافونبوس لما رآه من شحوب وجه القائدة .
وأكدادات حيرته عندما سمع القائد كورديو يوجه لهيلارى نفس
السؤال الذى سبق أن وجهه له هذا من قبل :

— هل تعلم ؟

وأسرع القائد كورديو يتولى الإجابة على سؤاله قائلاً :

— كلا ، أنها لم تعلم بشيء وأنى لها أن تعلم ؟ لكن كانت تلك
بمسئله ، لما كانت هنا الآن . . هيلارى ، ترى ماذا نحن فاعلور ؟

واستقبلته مريحة مبتسمة . وما إن اقتربت منها حتى
لاحظت شحوب وجهه وتطبيب جبينه . ترى ماذا به ؟ هل هو
جريح ؟ هل هو مريض ؟ ماله يحماق في وجوها هكذا ؟ لعلمها هي
المریضة لا هو ؟ لعلمها هي الجريحة لا هو ؟ وتاملت عينيها المنترنين .
أفهما تشعان بتدبير الخطر وما هو أشد هولاً من الخطر . وسمعت
دقات قلبها في أذنيها . أنها لحظة لقاء سعيدة لا تحتمل هذا
التجهم . ترى ماذا جد من أمور ؟

وانحنى الرجل أمامها محيياً ، ووقف بين يديها كما وقف
الكاهن أمام المذبح متعبداً . ولكنها ليست من الآلهة . بل تراها
ضحية لم تترك بعد حقيقة ما تزل بها ؟

— سيدتي ، أتني أحمل اليك أبناء خطيرة — هل تسمحين
بالدخول ؟

ولكنها تقدمت منه قائلة في هلع :

— هل هو زوجي ؟

— أنه سليم معافى .

— هذا هو كل ما يعني . أن كل شيء هذا ذلك هو . هات
ما عندك .

وبدا الرجل يقدم لما هو بسيل الإدلاء به . بدأ يتحدثها عن
روما وما طرا على الحياة فيها من تغيرات . وعن الإمبراطورين
المقدمين في السن ، ووعيهما في الأطمئنان إلى من يحلها على
العرش وبدأ في تحمل مسؤولية الحكم في حياتهما والاضطلاع
بما تضطلعان به من مهام . وأن تنفيذ هذه الرقبة قد استتبع تصيين
جاليروس قيصرًا على الشرق ، وكونستانتينوس قيصرًا على الغرب .

— .. بالها من أبناء عظيمة . كونستانتينوس قد أصبح
قيصرًا على الغرب .. أين هي الخطورة في تلك الأبناء ؟

واستطرد كوريو في مقدمته وتمهيدته موضحاً أن الإمبراطورين
قد رايا وجوب ارتباط القيصرين اللذين وقع عليهما اختيارهما
برباط يكون له طابع خاص يضمن ولاءهما . ورباط أقوى من كل
سقم أو بغي . ارتباط القرابة والنسب . ويتله على ذلك اضطرار

القيصر جاليريوس أن يسرح زوجته الأولى ليتزوج من ابنة
الامبراطور دقلديانوس، الأميرة فاليريا.

وأومات هيلينا برأسها لشمس أن يسترحل ، وكأنها كانت
تتوجس شرا مما مستحمه بعد ذلك ، - ومما سيكشف عنه لها
القائد كوريو - عما اضطر اليه القيصر الثاني ، قيصر الغرب
واكتفى زوجها بما تم عما تعطل به نفسها - واشفق عليها كوريو
فراح يدور ويتردد ويتلثم حتى ثل في كلمات متقطعة :

وقد اضطر القيصر كونستانتينوس أن يفعل ذلك هو الآخر ،
ولزوج من نيودورا ابنة الامبراطور ماكسيميان ، وهما في طريقهما
الى هنا !

فخطت هيلينا خطوة الى الخلف ، واضمعة يدها على مكان
القلب من صدرها . ووقف الجميع ، ضاظا وجنوبا ، يحملون
في وجوها الشاحب المكتس بالملوات الامى . ان احدا منهم لم
يسمع ما كان يقوله لها كوريو ، ولكنهم أدركوا من الموقف أن
ما ينقله القائد للسيدة جد خطر . ووقف قافونيوس وقد قلت
الدماء في مرقه تحلله نفسه يقتل أى انسان يعترض طريقه «
وركع هيلارى يصرى ويبتهل . ولم يتمالك قافونيوس نفسه ولم
يتحمل الموقف فاقصرف واختفى من المسرح . ووقف كوريو جانبا
فى مكانه لا يتحرك . وأخيرا تمكنت هيلينا من استعادة رباطة
جأشها وقالت بثرات ثابتة واضحة :

- هيلارى ، انى بولدى . مسترحل فوراً .

فسمعت ولدها يقول :

- انى هنا يا اماء .

ورآه كوريو يخطو قيصج بجوار والدته . ترى هل سمع
قسطنطين شيئا مما دار من حديث ؟ لابد وأنه سمع كل شيء .
فأخضى القائد امام الشاب قائلاً :

- قسطنطين . لقد أصبحت وحده المثل من حمىاية

والدتك !

- اجل . انى اعرف واجبى لبلما .

وعاد الفوثيوس ورفقوس يقودان خمسة من الجياد بينهما •
ولأملت هيلينا القادمين ، لم رمت كوربو بنظرة لم تفرب من
مخيلته طوال ما عاش من سنين بعد ذلك قائلا :

— أرايت يا كوربو ؟ أن العالم لم يعلم الاخلاص بعد !
ولم يستطع القائد الكهل أن يتمالك نفسه ، فالتصّب باكيا •
وأمتلى الخمسة ظهور جيادهم . وهنا صاح كوربو بصوت جهورى
آهين :

— انتباه .. السلام الامبراطورى .. سلام سلاح ..
وأدى الجميع ، ضباطا وجنودا ، التحية العسكرية للسيدة
الاراحة . وسمع كوربو أحد الضباط يطلق متماتلا :

— السلام الامبراطورى !
— أجل يا أجريبا . وليس أقل من ذلك .
ووصل الى مسلح القوم من بعيد ، صوت المندى يعلن قلوب
التحصن العظيم •



— ٤ —

— ان صديقا لى يلتمس الاذن بالقبلة يا سيدتى •
بلذك اعلن هيلوى قدوم صديقه لهيلينا •
وخلت السيدة المشحة بالسواد ساكنة لا تتحرك ولا تحيى •
وقد استقرت عينها على الامطح الفرמידية التى تواجهها ، وهى
تطل من نافذة غرفتها • انها نفس الامطح ، ونفس الشوارع •
ونفس الحياة . صديق ؟ ترى من هناك يكون ؟ فسالت :
— ماذا يبنى من مقابلتى ؟
— ليتشرف برفيك يا سيدتى !
— ليست لى رغبة لقابلة أحد . ترى من هناك يكون ؟

— ٥ —

« آلباتروس يا سيدي »

« الباتروس ... يالك من احمق ، دعه يدخل »

وفي الواقع انها كانت تعجب من امر هذا الرجل ومن مدعى
تأثيره على هيلاري . ووقع نظرها عليه وهو مقبل في الدخيلين
صوب حجرتها بقوامه النحيل وشعره الأبيض وردائه البسيط .
ثم دلف الى غرفتها محييا باحترام لها واعتماد بنفسه . فردتها
بحيئة واوماث اليه بالجلوس .

« ها قد تقابلنا أخيرا يا الباتروس »

« ان كل شيء يتم بناء على مشيئة الله »

« وهل انت على علم دائما بما يريد الله ؟ »

« اجل يا سيدي ، انه لا يريد الا الخير . ان مشيئته هي
الخير »

« تأمل العالم وما هو عليه »

« يا مولائي ، يجب أن نميز بين أمرين ، رغبة الله ، وإرادة الله »
« الله يرغب في الخير ، ولكنه لا يفرض إرادته دائما ، لأنه منح الخلق
نعمة الإرادة وهو يحترم حقوق هذه المنحة للإنسان ولن يسلبها
منه . لقد منحه العقل المميز والله لا يسترد عطيته بتدخله في
توجيه إرادة هذا العقل . انه يحب الخير ويرغب فيه ويوسعه أن
يفرض إرادته وينفذها ومن هنا تتعطل وظيفة العقل البشري الموجه
للإرادة . ومن هنا تتعطل هذه المنحة الربانية ، والله لا يسترد ما
منح له »

« ومن يكون الهك هذا ؟ أهو إله اليهود ؟ ألا يدعى اليهود
بأنهم شعب الله المختار ؟ وهل يقولون أن يؤثر إله الجميع شعبا على
آخر ؟ بنسب ما يقول به اليهود »

وراح الباتروس يحدثها عن اليهود في ماضيهم الديني وكيف
انقلبوا بعد ذلك قوما خاسرين . وملاذا كان موقفهم من المسيح
ابن المذموم الذي ورد ذكره في التوراة ، فطوبوه واضطهدوه
وتأصبوه العذاب ، أمعنا منهم في الكفر بعد أن هجروا أصول

كذبهم ، وأسمه التوبة . لم راح يستغل لها بعد ذلك مصاليهم
للمسيح وما يدعو اليه من محبة وسلام . فقالت له :

— لقد سمعت عن هذا المسيح الذي صلب في آخر الأمر .

— أجل يا سيدتي ، الرجل الذي صلب من أجلك .

— من أجل أنا ؟ لعلك تهلى يا الباتونى .

— من أجلك ومن أجل ومن أجل هيلارى ومن أجل ولك .

من أجل البشر لجمعين .

— أية لعنة هذه ؟

— اللعنة التى تقاسى منها جميعا . لعنة تبرير الخطأ بقولنا :

الإنسان من البشر ؟ لعنة افتراض الخطأ لبنى الإنسان . إلا أن هذا

الإنسان كما تحدثنا عنه الأساطير ، قد مر بمصر لذهى من ماضيه

البعيد ، لم يكن يعرف فيه إلا الخير والسلام . وقبلة طرا على

العالم ما خرج بالبشرية من دائرة الخير هذه . وهذا الطارىء

يحتل فى بدء معرفة الإنسان لقاهرة التمرد والعصيان .

— يالها من أسطورة شاعرية .

— أن الأساطير هي أكثر القصص صدقا .

— ومن ذا الذى أتباك بهذا ؟ أهو هيلارى ؟

— هيلارى ؟ سيدتي ، أنه لم يسبق لى التحدث الى هيلارى

تقريباً من هذا القبيل .

فتدخل هيلارى قائلاً :

— أنه لم يسمع شيئاً من ذلك .

فتساءلت فيما بينها وبين نفسها عما يقيسه هذا الرجل

للمسيح بداهة من حديثه معها . وأثرت أن تحسبته عن أهتمام

الولنية . وكان الرجل يصفى إليها مبتسماً أحياناً ، مومناً برأيه

أحياناً أخرى ، حتى انتهت من حديثها ، فشرع يقارعها بالحجة

بالحجة ، فى حدود وتمكن مما يقول ، محاولاً أن يأخذها ببعض

ما قالت هي نفسها . واختتم حديثه الطويل قائلاً :

— لقد منح الله الإرادة الحرة للإنسان ومنحه حرية الاختيار .

ولكن الإنسان أساء استعمال هذه الإرادة وتلك الإنحة وسقط

فى لجة الشر المحيطة . ولطالما تجاوز الله من ذلك وحاول أن
يهدى الإنسان الى الصراط المستقيم . ولكن الإنسان كان عنيدا
ساندا فى غيه ، حتى انتهى به الأمر أخيرا الى صلب هذا
الموت الذى سحق يده على طبع هذا البشرية . هل سبق لك
أن شاهدت رجلا مصلوبا ؟

— كلا . . . كلا . . .

وفطت عينها يديها من بشاعة ما تصوره

— انه لم يخطر بسمع حقا . ما اظن هناك ما هو أشد بشاعة من
ذلك . قطعتان متعلقتان من الخشب نصبتا ليوت عليهما
الرجل الما وسفك عليهما دمه القدس . دمه الذى سأل على
الخشب ليرى شجرة الحياة . . .

فقبرت هليتا من متعتها قائلة :

— من هناك تكون لك من ذا الذى انبأ بهذا ؟ بكل هذا ، ام
لعلك تسخر منى لا تثنى كان الأمر كذلك فالويل لك .

ويده النحيلة الرقيقة أوقفها البان عما كانت مسرعة فيه
قائلا :

— اتنى خادم من خدم الله المخلصين وتبع من أتباع المسيح .
والمسيح هو المحبة والسلام . أن من هو منلى لا يسخر من أحد
ولا ينطق الا صدقا .

— المحبة . . . او الحب . . . لقد آمنت به فى يوم من الأيام
ككثيرات غمري من النساء . ولقد انزاحت الفسادة من فوق عيني
ورأيت كل شيء بجلاء ووضوح . أن البشر لم يزالوا على حالهم
الذى كانوا عليه . ولم تنظفهم دماء مسيحك من أدرانهم . أن
حاساتهم تنكروا كل يوم على مسرح الحياة .

واستمرمت تخبط فى أقوالها متناكرة بظروفها الخاصة .
وأدرك من حديثها حقيقة حالها وما تقاسيه من الآلام وثورتفسية .
لقد أنكرها زوجها وجحد ابنه وألقى بهما فى خضم الحياة . أنها
لا تفهم رسالة المحبة هذه وصلوحته بذلك فى وجهه قائلة :

— ان رسالتك هي ليست لي . حيث لم يد لي هذا كي هذه الحياة . لقد كنت اهدف للحب ، والمجد .

— بل ان رسالتي شرحت لمن هم على شاكلتك من البشر ، ولن يتفكك الا التشبث باهتدائها . انها لم تكن لتفكك من قبل ، لانك لم تكوني قد استكملت نفسك . لقد كنت تعيشين في دنيا من الأوهام ، على أساس ان من حقا على الله ان يحقق لك ما تريدون بالصورة التي تريدها . وهو السعادة في عرف البشر . أي ان يخضع الله حكمته لمشيئتك أنت .

— لست أدري الى متى سأظل مصغية لهذا الرجل ، ولماذا اقف لاستمع اليه ؟

— لانك قد أصبحت أهلا لتواجهي بالأمر الواقع . لقد أقمت حياتك على أسس من الخيال ، وحجب قناع الأوهام الحقيقة من عينيك . ولقد ضاع كل هذا ويختر أمام حرارة الحقيقة المرة . لقد كنت تحبين نفسك قبل ان تحبي غيرك . كنت تحبين المجد لنفسك . والآن ، وبعد ان ضاع كل ذلك من بين يديك ، سيعود اليك الحب الصحيح ومسترحين المجد الحق . ستناهين أكثر مما كنت تعلمين به ، عيشي لغيرك لتعيشي غنية . تلك هي رسالة الله . وماك الله ؟

وانصرف الرجل في هدوء كما اقبل . وانفتحت هيلينا الى هيلاري وحاولت ان تتكلم . ولكنها ما ان تأملتته حتى احتجبت الكلمات في فمها ولم تستطع ان تنطق بكلمة واحدة ، لقد رأت على وجهه وحول وجهه عالم يمكن ان يوصف بالكلمات او يعبر عنه بلسان البشر .

ومرت الايام مرما في البيت الصغير الذي عادت اليه الأرملة لآشيا من رحلاتها ، كما كان يتحدث بهذا أهالي فيلوم . وكانوا قد طلوا غياها بخشيتها من الفزو الروماني فتوارت في مكان ما . « وماذا الى حديثهم من ابن السيدة وابنة جراتهم الصغيرة ميترفينا » — لولا خطايك ، لما كنت قد استقبلتك يا كورير .

— لقد قدرت ذلك فعلا يا سيدي ، ولحسن حظي انني كتبت

اليك في آخر لحظة . اتنى كلام اليك كصديق نعتب . لست
رسولا موقدا او مبعوثا خاصا . وهنا ما اردت ان اوضحه .

لقد كان كلاما فيما قال . . وكانت حياتنا تعلم ذلك . . ولقد
أدركت من بين مطور ومآلاته ، بل ومما كتبه فعلا ان تقدمه يا هنا
آخر غير مجرد زيارة صديق قديم يريد ان يطعن على احوال
اصدقائه .

وبعد ان قدم احد الخدم النبيل للضيف ، بنا هذا الحديث
بشرح الموقف السياسي ، وعودة الحياة الطبيعية للبلاد ، ثم طرقت
من هذا الى الحديث عن القيصر فللا :

— ان كونستانتينوس جد متصب وكنت اكثر الاجهاد يادبة عليه
منذما قابلته في الاسبوع الماضي . ولقد سألني ، بصفتي الشخص
الوحيد الذي يستطيع ان يقوم بهذه المهمة ، ان احضر لقايلتك .

لم استطرد في حديثه عن لعباء الحكم وعن تنظيم الجيش
و . . .

ولكنها قاطعته قلة :

— ولقد اشفقت عليه مما هو فيه من حرج . كنانا حديثا عن
بريطانيا ، فلم اعد اهتم بالامور السياسية او بالشئون العسكرية .
ما هو نوع المهمة التي جئت لها ؟

— ان الامر يتعلق بوليك !

— ارجو ان تتفاهم على الاسس قبل ان نخوض في حديث
آخر . . ان ابني قد شب عن الطرق وبلغ سنا يستطيع فيه ان
يختار لنفسه ما يشاء من حياة . ان شيئا واحدا أستطيع ان
أؤكد لك . ان ابني ان يقول أية سباجة من القيصر !

— اعرف ذلك . . وكما قلت لك من قبل اتنى قدام لحايي
الخاص . او بمعنى أكثر وضوحا ان ما سأقوله لك هو رأيي الخاص
كصديق لكم . حقيقة ان كونستانتينوس يعلم بمجيشي ويعلم بانني
قادم لاحدك بشأن وملك ومستقبله ، الا انه لم يعين لي شيئا
يكلفني بحدث محدد .

« أي مستقبل لقسطنطين ؟ » أن ولدي لا مستقبل له .

— لا ، لا . . كيف تقولين هذا ؟ . لنُدع القيصر جاليا الآن . .
فليس القيصر بالامبراطور ، وليست بريطانيا بالامبراطورية . . تلك
هي حقيقة الأمر يا سيدتي . . فليتحقق ابنك بجيش الامبراطورية
الشرقية . أن لي أصدقاء في بلاط القيصر جاليوس . وأنا زعيم
لك برعاية امره هناك . . لماذا ترين في ذلك ؟

وأطيفت هيلينا بعينيها حتى لا يرى الرجل الجالس قبالتها ما
ينعكس فيهما من الأفكار . وراحت قلب الأمر على كل وجهه .
أن تلك هي خطة كونستانتينوس بدون أدنى شك . ولكن لماذا يحرص
على إبعاد ولده إلى الشرق . أيريد أن يجعل منه رهينة هناك أو
أسرا ؟

ولكن ؟ . . أنها لا يجب أن تخضع تفكيرها لأهواء نفسها . .
كلا . . أن هذا هو المخرج الوحيد لقسطنطين . هناك مجال خدمته
ومستقبله . . هذا صحيح . . إلا أن هذا يعني في الوقت نفسه
الوحدة لها . . أنها تجرد شيئا قسما من كل ما يجعل للحياة
معنى في عينيها . . وأخيرا قالت للقائد :

« معرض عليه الأمر . . أليس كذلك ؟

وبعثت في طلب ابنها الذي عاد بعد قليل بقوامه الفارع الطويل
وشبابه الفضي .

« هل أرسلت في طلبي يا أماء ؟

« أجل . . لدينا ضيف يا قسطنطين .

فاتحني الشاب معينا وهو يقول :

« سبق لي أن تشرفت بالقائد كوريو . . لقد كانت لنا مقابلة
جدا .

وأثرت هيلينا أن تترك ناصية الحديث للقائد المحنك القديم .
فأجابت ابنها علما بما جله الرجل من أجله وتركت الباقي لكوريو .
وبدلت الرجل الحديث مع قسطنطين ، واستشف من حديثه
طموحه ، وتبين شروطه ، وأدرك أنه لن يرضى إلا برتبة قيادية

بالجيش . ووعده بالكتابة الى أحد تسباط الجيش العظام في
الامبراطورية الشرقية . واختتم حديثه معه قائلا :

— اذن فساكنب الى ليسينيوس غدا . . وأظن انه لا حاجة
بك لانتظار الرد . ولرى ان ترحل الى بيرطة في الاسبوع القادم ،
ونتظر رد ليسينيوس هناك . وأنا مطمئن الى موافقته على ما
سأطلبه منه .

وتردد فسطنطين قليلا قبل ان يجيب قائلا :

— سأسافر الى بيرطة في مدى اسبوع يا سيدي .

— عظيم . . عظيم . . سأنصرف الآن . . وسأقضي الليل في
فيلوم . ثم أعود ادراجي في الصباح .
ثم بعض من مقعده .

— هل لي ان أستفسر منك عما تعده للمستقبل ؟

بدلك سألته هيلينا قبل ان ينصرف .

— أعدت للمستقبل ؟ لقد قاربت السبعين من عمري يا سيدي .
وقضيت في منعصب القائد ثلاثين عاما . ان مشروعاى في المستقبل
هي ان أقتضى أيامي في زراعة الخضراوات في ضيعتي الصغيرة
بجبال ساينا .

— ان وظيفة القائد للرجل الأمين ما هي الا وظيفة القطة
بالنسبة اليه .

ولم يعقب القائد الأمين بشيء . وفضل ان يحبهما وينصرفه
ظركا الأم وابنها وحيدتين .

— انه موفد من طرفه : أليس كذلك يا أماء ؟

— انه جندي . وليس على الجندي الا الطاعة . ولقد أوشكت
ان تصبح جنديا ، أليس كذلك يا ولدى ؟

— لجل ، ولكن . . لبت من جنود . . .

— كلا . . ستكون من جنود القيصر جاليوس .

— أماء . . هناك امر لا تمرقينه ، وقد أن الأوان لأطلعك عليه .

— نرى ماذا عساه أن يكون هذا الأمر يا فسطنطين .

- اتنى لن أستطيع أن أرحل هكذا بكل بساطة -
 - انه مستقبك يا ولدى .. مستقبك الذى يجب أن يوضع
 فوق كل اعتبار ..
 ولكنها تأملت وجهه وأدركت ما يرتسم عليه ، أن الأمر غير
 ما بدا لها فى أول الأمر ، وسمعت يقول لها :
 - اتنى افكر فى حياتى المستقبلية .. اتنى أريد أن أصطحب
 معى ميشرفينا كزوجة لى .. اتنى أحبها ، ولوجو ألا تضىء المراقيل
 فى سبيلنا وفى سبيل سعدتى ..
 - كلا .. اتنى لى أفضل شيئا من هذا القليل .. لماذا لم تأت
 بها لتقابلنى ؟
 - هذا ما فعلته فعلا .. اتها تنتظر بالخارج .. هل أدعوها ؟
 - أجل .. هيا واسرع ..
 وعاد بها قسطنطين بمد قليل ، فتاة رقيقة تخطر فى مشيتها
 ولا تخطو ، وشيقة تخيم الحركة ، حتى تضيئها عندما انجلت
 كانت صورة فنية رائعة الحسن ..
 وتاملتها هيائنا قليلا .. ولم يعجبها منها جمالها أو أدبها بقدر
 ما أعجبها منها إيمانها بنفسها وثقتها بأنها خلقت لتسعد غيرها ..
 فنزلتها بين ذراعيها وضمتها الى صدرها فى حنان وتقدير ..

الجزء الرابع: ٢٠٢ - ٢٠٦ بعد الميلاد

أردحت القاعة الكبرى في قصر الحاكم بالضباط والقواد ،
وبجميع موظفي الدولة الكبار والأمناء ورؤساء المصالح . وكانت
أعصاب هذا الجمع متوترة ، لأن أحدا منهم لم يكن يعرف شيئا
من السبب في هذا الاجتماع ، وإن كان بلديا للجميع أن الأمر على
جانب كبير من الأهمية ، لما تناقله البعض عن هذا الرسول الحاس
الوقد من قبل الإمبراطور ، والذي وصل في صباح اليوم نفسه ،
ولم يكن يعلم عن السرى في حضور هذا المبعوث الشاس - فيسا عدا
القيصر - إلا مسترايو السكرتير الخاص للقيصر ، ولو لم يكن تناقله
القوم عن هذا الرسول الإمبراطوري ، لرجحوا أنه الدعوة إلى هذا
الاجتماع كانت كسابقاتها ، لإعلان ميلاد الطفل السادس للقيصر ،
الذي رزق بخسة أطفال في خلال الثماني سنوات لزواجه من
الأميرة نيودورا . ولكن لا .. أن الأمر أجل من ذلك وأعظم خطرا .

وقد بدت دلائل ذلك ، على وجه القيصر عند دخوله القاعة ،
ولم يكن في معيته إلا سكرتيره الخاص مترايو ، وفيلبوس ، كبير
الموثقين ورئيس البيئة القضائية . إن فالامر يتعلق بقانون جديد ؟
إن كبير الموثقين لا يحضر مثل هذه الاجتماعات إلا إذا كان هناك
ما يتبناه من سن قانون جديد !

وانظ كونسنتاتيوس مطبسه على العرش المعد له ، وكان
شاحب الوجه يادى الضيق والاجهاد . واتجهه بكلامه للحاضرين
- وكاتوا وفوق - قائلا :

- اخواني .. لقد تلقيت اليوم رسالة هامة من جلالة الإمبراطور
دقلديانوس ، بناء على ما رغب إلى جلالتسه من زميلي القيصر
جالبريوس ، ومسيحيكم علما بها ومحتوياتها فيلبوس كبير الموثقين .
وقلا كبير الموثقين على الحضور الرسالة الإمبراطورية . وفهم
الجميع منها أن الأمر خاص بجماعة المسيحيين وحركتهم في

الشرق . وانتهت الرسالة بسلسلة من الأوامر والقوانين التي تقضى بأن يسلم رؤسائهم الدينيون كل ما لديهم من كتب ومخطوطات . وعلى الهيئات المختصة أن تقوم بأعمال التنازل في جميع هذه المخطوطات والكتب ملنا وفي حضور رجال الدين المسيحيين . . . يضاف إلى ذلك مصادرة جميع أملاك الكنيسة المسيحية وبيعها بالمراد الملقى وإضافة حصيلتها للحزنة الإمبراطورية . . . هذا مع حرمان جميع وظائف الدولة على المسيحيين وكل من ينتمى إليهم . وليس لأى مسيحي الحق فى أن يلجأ إلى القضاء ، اللهم إلا إذا كان متهما أو مدعى عليه . كما يجب هدم جميع الكنائس من أساسها . وبعد أن انتهى كبير الوثنيين من تلاوة الرسالة والقوانين المرفقة بها نهض القيصر قائلا :

— لقد استمتم إلى الرغبة الإمبراطورية . وسيوم مكتبة الأسماء بتلخيص هذه الأوامر إلى المختصين لاتخاذ اللازم نحو تنفيذها وسأبدا بتنفيذ هذا الأمر فى بلاطى وفى المصالح المختصة بالقصر . وأنى لأعلم أن بعضكم من أنصار هذا الدين الجديد . ولقد قررت أن أمهل هؤلاء يومين ، يقررون فيهما العقيدة التي نختارونها لأنفسهم . وعليكم جميعا أن تعودوا للاجتماع هنا بعد مائة فى نفس هذا الميعاد . . . اخوانى ، إن تقرير مصيركم هو كراه اليتم .

ثم ألقى بتيخته للحاضرين وانصرف .

وانفرط عقد الحاضرين . ولم يعلق أحدهم شئ على ما سمع بالرغم مما اكتسبت به وجودهم من غم وفلق وأسى .

وعاد القيصر إلى غرفة مكتبه . وطلب عرض الملف السرى عليه وأمضى برهة فى مراجعته .

ومرت النمانى والأربعون ساعة . وعادت الحجة للانعقاد . وأضيف إلى القائمة مديح أقيم فوه تمثل نصي للإمبراطور . . . وبعد أن نطق القيصر ببعض كلمات قليلة قام إلى المذبح وأدى الطقوس الوثنية المعتاد عليها . وحذا كبير الوثنيين والكهنة الخاصي حذو القيصر . ثم قام الحرس الخاصي بما قام به الأولون .

وبعد أن استقر القيصر طويلاً عرفه وولفت حوله حاشيته ، طلع من المسيحيين الذين وجعوا بين الحاضرين أن يتقدموا خطوة إلى الأمام ، وخيم على القاعة سكون مطبق ثقيل . وبعد برهة وجيزة تقدم مدد من الرجال إلى الأمام ، واحداً بعد الآخر . وأمرهم القيصر أن يتنحوا جانباً . ولم يستطع أحد أن يتبين من ملامح وجهه ما يمتثل في نفسه . بل ولقد بدأ وجهه جليماً جموداً كمثل الإمبراطور الرخامي المنصب فوق المذبح . وراح الصمت على جميع الحاضرين ، أنه في الواقع اجتماع لم يسبق له مثيل .

وأمر القيصر مسكرته بهذين اسميه المنتهين جانباً بعد أن بلغ مددهم أكثر من الستين . وبعد أن حصر المسكرته أسماءهم ، قام بتسليم الكشف إلى القيصر ، الذي قام بدوره بمراجعتها على الكشف الآخر الذي بيده ، ثم قال :

— ثمانية عشر اسماً غالبية من هذا الكشف .

وبدا يتلو الأسماء المثلث إليها .

ولاحظ كل من فيليوس وسترايو أنه أغفل تلاوة اسم واحد فقط . واتخذ المنادي عليهم الجدد ركناً آخر لهم ، وأصدر القيصر أمره بأن تبدأ الطقوس الدينية بالنسبة لسائر الحاضرين ، الذين وتعين عليهم أن يتقدموا من المذبح متعبدين . وجلس يراقب صفوهم في هدوء ، وتساءلت سحب الدخان وتكاثرت بازدياد الملحنين بقرابينهم إلى النار .

ولم يبق بعد ذلك غير الجماعتين المنادي على أسمائهم . وتقدم الضابط سارنو إلى الأمام معلناً رغبتهم في إعلان عدوهم من دينهم الجديد ورفضهم في العودة إلى حظيرة ديانتهم القديمة التي يمثلها شخص الإمبراطور المقدس .

وأولاً القيصر برأيه موافقاً ، مسائل الضابط أن يبدأ بذلك فصلاً . وتقدم الضابط وتبعه الحاضرون من المسيحيين واحداً بعد الآخر . وكان هؤلاء جميعاً من الجماعة الثانية ، جماعة الثمانية عشر التي نودي عليهم .

أما الجماعة الأولى التي كانت قد تقفنت عند بدء الاجتماع خرج
لقائه نفسها ، فقد ظلت في مكانها لا تتحرك ولا يتقدم منها أحد .
وراح القيصر يحذوهم بنظراته ، وأخيرا نادى على الضابط فلافيوس
رويلوس ، الذي تقدم خطوة من جماعته قائلا للقيصر :

- سيدي ، لن أستطيع أن أقوم بقي من هذا القبيل .
مستعد أن أقتل في سبيل الامبراطور ، لا أن أعبده !

ولاه ثلث وثلاث ورايح ، وكلهم وافقوا أن يكفروا بدينه الجديد
ولقد قال له أحدهم :

- لقد قيل : اعط ما للقيصر لقيصر ، وما لله لله !

ولم يمره كونستانتينوس انتفاجا ، بل نادى الاسم التالي . وهكذا
تكرر الوقوف وتكرر الاعتذار .

والثاء ذلك ، فتح باب القاعة ودخل منه القائد كوريو . وتماثلت
أنظار الحاضرين به ، حتى تقدم من العرش وأدى التحية الواجبة
لم استدار لينضم إلى صفوف المسيحيين . وكان ينادي القلة ، إذ
كان الجميع يعرفون أنه كان مريضا خلال الأسبوعين السابقين
ملازما لفراشه .

وبعد فترة من السكون والرعدة ، نهض القيصر من عرشه
وحيا الحاضرين منصرفا . ولكنه مرعان ما توقف عند باب القاعة
مستديرا إلى الجمع الحشد في القاعة قائلا في صوت خاطع :

- لقد كان هذا الاجتماع محكا لولاء رجال الامبراطور من
عسكريين ومدنيين .

ولأسبعا على ما افصح لنا في هذا الاجتماع ، فليعلم كل من
يحيطون بالضابط سارو ، أنهم مفصولون من وظائفهم .

ثم ولى الحاضرين ظهوره مفادرا القاعة ، وساد بعد خروجه
هرج ومرج وذعر وأسى - وظفت اصوات المحاصرين وهم يتفقدون
حياة الامبراطور وحياة القيصر .

وارسل القيصر في طلب كوريو . وتوجه هذا لفرقة مكتبه

القيصر الذي استقبله مرحباً وصرف الحاضرين ليفرد به .. ثم دعاه للجلوس قائلاً :

- ما كان يجب أن تفادى فرائض المرض .

ثم قدم له كأساً من النبيذ مستطرداً :

- إذا ما جن جنون الإبلورة ، فليس أقل من أن يحافظ القياصرة على أترانهم .

- أو أقمهم من ذلك انك لا تقر هذا القانون ؟

- ليس في ذلك من شك يا كوريو . الا أنني مضطور الى

تنفيذه . وسأبذل قصارى جهدي للتخيل على حرفيته .

- هذا ما كنت أنتظره منك .

- ولكن خبرني ، كيف انجبت هذا الاتجاه المسيحي ؟ . أنتما

بماضى أسرتك الحافل العريق . أتني لأذكر ...

- وهل يحول ذلك بيني وبين الاقتناع بالحق عندما يعرض لي هذا ؟

- الحق .. الحق .. انه فلسفة جديدة - فلسفة هؤلاء

المسيحيين ، ولكن ...

- انها ليست بفلسفة أو نظرية ، انها الحق المجرد والواقع

الصحيح . وما إن يحيط به المرء خبراً ، حتى يتصرف في حدوده ويقتنع به .

ودخل في مناقشة دينية هادئة ، وخاضا في حديث طويل دافع

فيه القائد كوريو عن وجهة نظره المسيحية ، وكان كورستانتيوس

يساجله في بعض مباحث وذاع عن محضرات المسيح وعن الخير والشر ،

وتصوره أنه يجب أن يكون لكل منهما اله . وحاول كوريو أن يقنعه

متطعياً بأن الخير من عند الله أما الشر فمن عند الانسان الذي تنكب

طريق الخير السوي . ثم عرج القيصر على أهم مايقتر به المسيح ،

وهو المحبة والسلام والمناخلة ، وقال في هذا معقياً :

- دعنا من تلك المجزات . ان هذه المبادئ التي دعا اليها

المسيح هي المثل العليا للانسانية الحقبة اذا ما صادتها وطبقها

أسسها • إلا أنني أرى أن ذلك من الصعوبة بمكان • التي لا أوافق
 مثلا على القانون القاضي بهدم الكنائس وحرق الكتب والمحطات
 ولذلك سأعمل من ناحيتي على التحايل على تنفيذ هذا بقدر الامكان •
 - يسرني أن اسمع ذلك منك • وهناك عدالة يتصلك ان • • •
 - كلا • لاستمر على • فانا اعرف ماذا انت بقاتل • لاتذكرني
 بهذه النقطة السوداء في حياتي والتي تنكبت بها طريق العدالة
 السلام • وبهذه المناسبة • فأنني لم أوف لك قدرك من شكر على
 ماقتت به من اجلي من خمس سنوات خلت • في فيرلوم •
 - لم يكن بك حاجة لأن تشكرني • لقد فعلت ما فعلت من
 اجلي • وليس من اجلك أنت •

- ٢ -

كانت العربة تسرع في الطريق الى فيرلوم • وكانت تحمل هيلينا
 في عودها بعد ان وارت قبر والدها • كما اعتادت هذا في كل عام •
 وحيث كانت تجد المئات من الناس يحجون اليه دعي • انهم جميعا
 لم يتسموا بهذا الملك الذي كان ابا للجميع • ولم تمنح ذكره
 من قلوبهم •

وما ان توقفت العربة بباب منزلها • حتى اقبل فافوبيسوس
 مبتسما محييا • فيأذنه مستقيمة :

- كل شيء على ما يرام يا فافوبيسوس ؟

- اجل ياسيدتي •

- هل بين وسائل من ولفي ؟

- كلا ياسيدتي •

وهبطت من العربة • وحيث روموس الذي كان ينتظرها عند
 باب المنزل الداخلي •

وارتقت الدرج وهي تتسائل عن السبب في تأخر روموس وماذا
 من اينها او من زويخته مينوفينا • التي كانت تكرر من الكتابة اليها

بالرغم من النهاية بولنبا كريسيوس ، الذى بلغ الخامسة من عمره
تقريبا ، أو يرجع ذلك الى انتظارها مولودها الثانى ؟ أم لعلها قضا
وطبعت مولودها الثانى فعلا ؟ ترى أين قسطنطين الآن ؟ لعله عند
الحدود الفارسية ، حيث لا يمكن أن يجد الرجل فسحة من الوقت
للكتابة . وأخيرا رأت هيلارى يهرول لتحياتها ، فسمرت لحراء ، بعد
أن المتقدته فى هذه الرحلة لأول مرة . وانها لتذكر لتتذكره عن عام
مرافقتها ، وانها لتعرك السر فى تخلفه هذا . لقد ازداد انهماجا
فى مسيحيتها وتصقا وتعاملا فى دينه الجسدي . ولكنها لاحظت
فى الوقت نفسه ، أن ثيابه ويديه ووجهه كلها متسخة ، فلما
استفرت منه عن ذلك قال لها :

— لقد كنت أهاون فى إطفاء النار باسمي .

ثم عرفت منه أن الحريق كان فى بيت للاجتماعات المسيحية
أشعلت النار فيه قوات الحكومة . فنهضت بأن يستل فى نشاطه
حتى لا يتعرض لمخطط أولى الأمر . وبيئت له مدى ما فى ذلك من
خطورة . فاستأذن منها ليتنسل ويستبدل ثيابه ، شاكرًا لها
تحيته وحدها عليه .

ولما عاد ، وجدها تجلس قبالة النافذة تنطق فيها أمامها من
لفضاء . فى فضاء تجد بين أجزاءه حقب الماضي وذكريات حياتها
التي ملئت مسحة وهناك حينا ، وشقاء وغنى حينا آخر . . .

— سيدتى . . . سيدتى . . . لقد صنعت بخلتك ستة عشر
شاما طويلا ، وقد أن الألوان لاكشف لك عن بعض ما كان ينطوى
عليه تفكير والدك وبعض معتقداته .

وظلت فى وضعها الذى وجدها عليه مولية له ظهرها . وأخيرا
تحركت قائلة :

— والذى . . . ماذا تعنى ؟

— أمطورة الخشب الحى يا سيدتى . قصة شجرة الحياة .

واستعادت ما كان يقوله لها والدنا :

— أن فى الخشب معنى الحياة . وفيه أيضا معنى الموت .

قلعته أجيال لأنه رمز للحياة قائما على جوارحه ، وانطلقت في الزمان
أجيال تبحث عن سر الحياة فيه - إنها قصة لا بداية لها ولا نهاية •
قصة لازمت والدها طوال حياته ، وكانت آخر ما فكر فيه ودخل حولها
حديثه قبيل مماته :

« أتت وقسطنطين »

نعم ، لقد قرن اسمها باسم ابنها قائلا :

« أتت معا مستهديان الى شجرة الحياة »

واصططد هيلاري في حديثه قائلا :

« إنه لم يستطع أن يضم لك هذه القصة ، لأنه لم يكن يعرف

نهايتها كما عرفتها أنا »

« وماذا عرفت عنها »

« إنها قصة قديمة منذ الأزل يا صديقي » لقد سمع بها الملك

كوبل - سمع بها عن أهل الشمال ، وسمع عن شجرة الحياة في

مصر ، فتحملها أمامه بطريقة الخاصة ، ولكنه لم يعرف ما عرقته

أنا وما صاروبه لك الآن ؟؟؟

« ومن ذا الذي عرفك بها ؟ »

« أليانوس ، الذي سمعها يدور من القوم في بلاد الشمال

عندما كان ملحقا بالجيش »

« إذن ، مات ما عندك ؟؟؟ يردى أن أعرف تفاصيل هذه

القصة ؟ »

وراح يقص عليها قصة الشجرة التي كانت بقصر الملك سليمان

الحكيم ، والتي يرجع تاريخها الى يوم وفاة آدم ، حين نبتت من بين

أجندك قبره - وكيف أن ذلك سليمان بالرغم من واسع علمه

وعيني حكيمته لم يكن يعرف سر هذه الشجرة حتى قدمت لزيارته

ملكة سبأ ، التي كانت تعرف هذا السر قللا عن أجندتها وأسلافها

بجيلا بعد جيل ، فكشفت له عن سر الشجرة وما لها من قلصية »

بما حدا بالملك الى اقتلاعها ودفن أخشابها في باطن الأرض بالغرب

من تخوم المبدد ، وبنتت الحفرة مده كانت تقتل فيه اللاتسبة

التي تقدم قرايين جيلا بعد جيل •

وعندما حان الحين قضيت هذه الحفرة وغطت وانحسرت عرى

الغضب مرة أخرى •

« ومعنى كان ذلك » ١٩ »

« عندما آن الأوان لأكثر تضحية في الوجود . تلك التضحية التي تضاعف أمامها كل تضحية أخرى ولا تكون بعدها إلا رمزاً . ومن هذا الخشب الجلب أقيم أشرف صليب في الوجود ... هذا الصليب الجاف الذي سالت على جوانبه الدماء الطاهرة المقدسة فجعلت منه شجرة الحياة ... شجرة الحياة التي كان يحس بها والنك ولم يدرك لها كنها »

« وهل صدقت هذه الرواية » ٢٠ »

« انني اؤمن بما تهتبه ، أجل - اؤمن - بما قيل قبلياً وما يقال بعدها »

أؤمن بما انفطرت اليه الإنسانية من استاف في الظلم وامعان في الكفر وبسد عن نهجنا التويم . اؤمن بأن تعاليم هذا المسيح تنتشر من قرية الى قرية ومن قطر الى قطر حتى يظهر الحق الأكبر . ثم صارحها هيلاري بأنه قد رسم قسيساً . ولم تنأجأ بهذا اللباً الذي كانت تنتظره وتترقبه ، بعد أن اعتذر لأول مرة عن مرانيتها في زيارتها لثبر والدعا . ولما استفسرت منه عن ذلك، سرد على مسامعها ما مر به من طغوس في هذا الحفل الصغير الذي أقيم بالبيت الذي أشفق رجال السلطة النار فيه . وأردف قائلاً :

« كان هذا البيت بمثابة كنيسة عبادتي . وكان محل عبادتنا واجتماعنا »

« ألم يعد لديكم بعد ذلك مكان تجتمعون فيه » ٢١ »

« مستجمع عند أليانوس ، بالرغم من ضيق بيته . وإن اجتمعنا مرة فلن نستطيع أن نولي اجتماعتنا بصفة مستمرة خشية إثارة شكوك رجال السلطة المحليين . لذلك منحصر على تغيير أماكن اجتماعتنا »

ودعش الرجل إذ سمعها تقول له :

« ان هذا البيت تحت تصرفكم يا هيلاري . لست مسيحية و
وما أظنني سسكون كذلك ، ولكنني أمقت الظلم والاستبداد »
« متى ستجتمعون فلدا » ٢٢ »



« عند الفجر يا عميدتى ، لانا »

« لانى ساحضر هذا الاجتماع لأرى وأسمع طوقسكم »

وعند الفجر ، ذهبت مع هيلارى لحضور الاجتماع الذى أشار اليه فى منزل البانوس . واستقبلها البانوس وأدخلها حجرة قد اكتظ فيها المجمعون . ولم ير القوم السيدة الدخيلة عليهم أى التفات ، بل كانت أبصارهم معلقة بالبانوس فى خشوع وترقب لما سيقول ولم يكن بالحجرة من ضوء ، الا من هذا الضوء الخافت المنبعث من أربعة مصابيح منتشرة فى أرجاء المكان . وما كاد لقام يستقر بالمجمعين ، حتى اقتضت الباب عليهم ثلة من الجنود مهندة متوعنة ، فأسرع البانوس يصدر أمره بإطفاء المصابيح ، التى سرعان ما حست شعلاتها ، وعم الظلام المكان واختلط الحابل بالبارق وتمالت صيحات الجميع . وعندئذ طلب البانوس من هيلارى أن يسرع بمفاداة المكان من باب خلفى بعد أن صلحه قسدا فخبيا أطبق عليه بيده ثم أمسك بيد سيدته وانطلقا من الباب الخلفى .

وكانت الدنيا ظلاما ، وأوغلا فى المسير حتى اذا ما أصبحت على مقربة من المنزل ، اعترض سيلهما قاطع طريق استلقت نظره بريق القدح الذهبى الذى كان يحمله هيلارى بيده . فسأله أن يسلمه إياه . ولما رفض هيلارى أن يستجيب له ، وازداد تشبها به ، قرر الرجل أن يستعمل معه القوة . وكان المفروض أن يلتقى هيلارى بما فى يده حتى يستطيع أن يقاوم الرجل بكلتا يديه . ولكنه صم ما يحمله الى صدره ، وراح يدافع عن نفسه بيد واحدة ، الأمر الذى مكن منه غريمه . ثم أبصرت بتصل خنجر يرتفع فى الظلام ، فأسرعت الى حيث يتناسك الرجلان ، ولكنها وصلت بعد أن تمكن اللص من طعن هيلارى ثم فر هاربا . وساعتت هيلارى على النهوض من عثرته ، وعاونته حتى بلغا باب المنزل الذى فتحه لهما أحد الخدم وأسرع ليختر قافوتىوسى بها وقعت عليه عيناه . وأقبل قافوتىوسى مهرولا وحمل هيلارى الى فراشه . ثم اندفع فى استدعاء الطبيب !

ووقعت هيلينا الى جانب فراش الرجل المحتضر تتأمله فى أسى وحسرة . ورأته يحرك أهدابه وينظر اليها شاكرا . ثم يمد اليها

ذراعه بيده التي كان يضمها الى صدره . ولاحظت انه يحرك شفتيه
 فركبت على ركبتيها حتى تستطيع ان تتبين ما يقول . وكان كل
 ما استطاعت ان تتبينه تلك الكلمات المتقطعة :
 - احتفظي ١١٠ في ١١٠٠ أنت .

وكان هذا الشيء الذي يقمعه لها ، هو القدح الفحبي بغطائه
 الجلدى . فمالت يدها وتناولته من بين أصابعه في اللحظة التي فارق
 فيها الحياة .

وظلت راکمة بجوار قرائه مطقة يدها على القدح النحبي
 محدقة النظر في وجهه الذي اكسى بصفرة الموت . وقد علت شفتيه
 ابتسامة الرضا والبراءة والظهور .

وأقبل فلوتوريوس ، وساعدها على النهوض ، ثم مشيت
 الى غرفتها تتنابها مشاعر الحزن والأسى والهم الدفين . وما ان اغلقت
 الباب حتى نزعته عن القدح الفطاء لتجد فيه وغيفا من الخبز
 فير المتبر .
 وحملت نفسها قائلة :

- لقد منحني والدى هيلارى - ومنحني هيلارى هذا - اننى
 سأحشوا به ما حييت .
 ثم أعادت الفطاء الى مكانه من القدح النحبي .

- ٣ -

- صبيحة تطلب مقابلة القيصر .
 بذلك دخل جنسدى الحراسة مكتب ضابط الحرس معلنا
 طلب السيدة .

فرحقه الضابط بنظرة ازدراء قائلا :
 - لعلك قد جئت ؟

فررد الجنسدى ما سبق أن أعلنه لضابطه قائلا :
 - صبيحة تطلب مقابلة القيصر !

— رباه ، ماذا فعلت لـتـبـلـيـنـي بـرئـاسـة شـرـفـة من المـتـوعـن ؟
انك لا تفقا تردد ، سيدة تطلب مقابلة القيصر ، - وماذا أنا لـاعـل
لها ؟ ان هذا ليس من اختصاصي ، ان طلب المقابلة من اختصاص
الامناء ، قل لها ان تكـتـم بـطـلـها الى مكتب الامناء !

— سيدة تطلب مقابلة القيصر !

فتعازل ضابط الحرس اخرا ، ورفع عينيه عما كان يحتفل
به ، ليرى السيدة تقف خلف الجندي مباشرة ، تقفز واقفا على
قدميه ، وما ان تبين حقيقة شخصيتها حتى قالت له :

— الاميرة هيلينا ، فلتنحى توا لـاـخـطـار الامين الخاص بانني
هنا لمقابلة القيصر ،

— سمعا وطاعة يا سيدي ،

وكان يقف خلف السيدة رجل طريل القامة لي ردائه
المسكري ، وتقدم هذا خطوة الى الامام قائلا :

— ولتأت بمقعد للاميرة ،

وامر ضابط الحرس بمقعد للاميرة ، واسرع الجندي لتدنية
الامر الصادر اليه ، ولما عاد الجندي بالمقعد قال مافريوس :

— وهل يليق بالاميرة ان تجلس في مثل هذه الغرفة ؟

وجيء بالمقعد فصاروا الصخرة - - وبعدها الى غرفة الانتظار
الملحقة بمكتب الامناء ، وجلست هيلينا مجتدة عذبة بعد تلك
الرحلة التي استمرت حوالي ثلاثة ايام ، ولم تستطع ان تتخلص
عما يدور بخلفها من ذكريات الماضي القريب عن هذا الاجتماع الذي
حضرته وما أعقبه من مقتل هيلاري ، وما كان بعد ذلك من تسوية
حتم الاحكام في الباباوس ، لقد سمعنا ما كان هذا التبا ، ولكن
لانا ؟ اعلمها قد اصبحت مسيحية ؟ تـنـزـ - - كلا ، انها لـيـس
مسيحية ، ولكن هذه الاحداث وتصرفات رجال السابلات المـتـاـيـن
تلقفها دفعا لتصبح مسيحية ، ان تلك المذابيح يجب ان تتوقف ،
لان اضطهاد هؤلاء المستضعفين الاعمقين الواثقين يجب ان يوضع له
حد ، وهذا هو السبب فيما تحببته عن مشقة هذا السفر والعلة

فيما انصت عليه ، لقد رأت بعينها وسبحت بأذنيها وتحققته
ما يقع من عظامه .

وقطع عليها حبل تفكيرها ، لئلا يأمين محبها مرحبا قائلا :

- لقد اعتكف القيصر في جناحه الخاص منذ ساعة ، على أثر
ما تلقاه من أنباء ورجت إليه من ميلان من بعض الرسل . وقد أمر
بعدم ازعاجه . وبمجرد إمكان الاتصال به ، سأخطر به بقصودك
يا حبيبتى الأميرة - انتهى جد أسف . . .

- انتهى لن أقادر هذه الحجرة قبل أن أقابل القيصر ؟

وماد الأمين من حيث أتى معتبرا راجيا أن تنفر الظروف .
وجلست هيلينا في مقعدها وقد طأنت بها الذكريات وحطت بها
إلى حيث تجلس في تلك اللحظة تنتمى المقابلة في قصر
أكونستانتينوس زوجها . . . وهي لا تستبعد أن تطرد من هذا
القصر . أنها الزوجة المرحلة التي جحد وأتكر زواجه منها . أنها
أم الولد الذي لم يعد والده يعترف به . أنها . . .

وهنا فتح الباب ، ودخل منه رجل بمشي الهولنا منحني الظهر
قليلا . رجل متقدم في السن ، أشيب الشعر أشعث . وجل خبط
يد الزمن ملامحها على وجهه وتحت عينيه . أنه كونستانتينوس .
أكونستانتينوس يحمل على كاهله عبء الأيام والحكم مما .

ونهبست من مقعدها . وكانت قد أهدت كل كلمة مستطيق بها
أمامه بعد أن تمنى احتراماً لمثل الأميراطور . ولكنها لم تمنح
بل قالت مباشرة :

- أنك يبدو متعبا مجهدا يا كونستانتينوس . هل بك حلة لا .

- انتهى متعب حقاً من كثرة العمل .

ثم اتجه له مقعدها في ثاقب الشيوخ مستظرفا :

- وأنت أيضاً يا هيلينا يبدو عليك الإرهاق . إن ذلك بالنسبة

إلى أمر بدنيي ، فقد بلغت الستين أما أنت . . .

- انتهى في الخامسة والخمسين . انه عمر طويل . . . طويل . . .

لقد حضرت لأتحدث إلى القيصر في أمور هامة .

— اذا كان الامر كذلك ، فانت حبيبة الحق . ان من كنت
لتحدث اليه بوصفه القيصر لم تعد له هذه الصفة له

وابتسم لأول مرة منذ دخوله الغرفة .

فصبلت في وجهه دحشة متسائلة :

— ماذا تعني ؟

— لقد تنازل كل من دقلديانوس وماكسيميان عن العرش
وسبخلهما كونستانتينوس وجاليريوس في الحكم .

— ان كانت الامبراطور الآن ؟

— اجل يا هيلينا ، انهم يعدون الاعلان الخاص بذلك في هذه
اللحظة . ولقد شابت الظروف ان تكوني اول من يعلم بهذا التباين
بعد الرسول الذي اتى به وبعد سكرتيري الخاص .

— تلك اثناء سلوة ، وهي تيسر الامور وتجعلها اكثر سهولة .

— أي امور هذه ؟

ولقد فتت الكلمات من قفا نحكي له ما يرتكب من مظالم ضل
تقوم الايام الذين لاجريرة لهم غير انهم يجتمعون لعبادة ريم .
ومررت على مسامحه ما يرتكب من جرائم وما ينتهك من حرمان
واسم الامبراطور . وطالبته بالفناء هذا القانون الذي اباح دماء هذه
الفئة . وناشدته ان يستمع اليها لانها لا تريد لاسمه ان يبدو في
صفحات التاريخ ملطخا بدمار الاضطهاد . لم انلذه بأنه ان لم يفعل
ذلك ، قامت باعداد فرق قتالته كما فعلت ضد حكم كاروسيموس
الاجنبي مدابعا وهو يقول لها :

— اتك كما عهدتكم لم تغري ، هيلينا الثائرة للتدفقة حماسا .
لم تغري ابعثه الى الجحيم قائلا :

— لعلك لم تغري مسيحية كما فعل كورويو ؟

— كلا . وانا لم اعرف الا الان ان كورويو قد أصبح مسيحيا . لولا
كل سبهم هو الآخر ؟

— لقد كنت في حيرة عما اتبعه معه . لقد تجاوز سن الخمسة
العسكرية . كما انه اكفا من ان يقبع في مقر دلوه بضيافته ياطاليل

لقد احدثت الآن الى ما يصلح له فعلا . سامعينه محافظا لغز لوم
.. كوستانتينوس ..

— وحيث انه من المسيحيين ، فانه خير من سيقوم بتنفيذ اوامري .
ان المسيحيين يطيعون اولي الامر منهم . ولذلك تيسر لي عن طبيعة
هذه الاوامر الذي سيمهد اليه تنفيذها . ان اول هذه الاوامر هو
الخلاص بالفناء قانون اباحة دماء المسيحيين وانسلاخهم . ان هذا
الامر بعد الآن فعلا مستقوم بالتاكيد من ذلك بعد تناول العشاء .
— او تعني انك اعلنت فعلا امرك بالفناء هذا القانون الظالم ؟
انني لا اكاد اسبق ادنى . ولا استبعد هذا هنا . يا كوستانتينوس !

— يا عزيزي . لقد كان من اشق الأمور على ان اولئك بين حقيقة
ما اؤمن به وبين صفتي كقبح يحكم باسم الإمبراطور . ولقد
سارعت بمجرد تخلصي من هذا المائق الى ايقاس العمل بهذه
القانون الجائر حتى اتمتع ما بعد ذلك من مقالتي .
فنبضت عن مقعديا وقد برقت حينها ببريق السعادة التي
لم تعرفوا مثل عدة سنين ، وقالت له :

— انني سعيدة ، سعيدة سعادة مؤدبة ؟ ١٧١ لم تنتشر لتتألم
لتحقيق العدالة وتسيير الأمور الى نصابها
مدللي انياد مسورة اخرى مستزيد من مدادك .
— وحل هناك عن عزيد ؟
— لو انسييت ولبك ؟ يا لك من أم ؟
ثم ارحف قائلا :

— انها تتعازى بسخطين ، انه عرض لولبية رائد بناء على
ما قام به من أعمال مجيدة على حزمه يلدت الثرى .
— قائم في سن العادية والثلاثين ؟
— وويك . انني سأعارض في ذلك !
— لماذا ، الصغر منه ؟
— كلا . لأنني اعلمه لشيء آخر !
— ولكن قسطنطين لن يقبل منك أي معروف ؟

— لقد فكرت جدياً في ذلك منذ ربح مصاعاة فقط • انني لم
أتصور د ظروفي ستكون كذلك في هذا اليوم بالذات • ترد لي
الأمراء باعتلاني عرش الامبراطورية ، وتشاهد الظروف أن تحضر
بشمار آخر فتشاركونني هذا السيد وتكونين أول من يسمح بالتأيا
العظيم • اصمى الي يا هيلينا ، ما أظن أن قسطنطين يرفض
العرش ؟

— ماذا تقول ؟

— سيد بيديها من يدية مستطرحا :

— هيلينا • يا عزيزي • لقد ارتكبت أمراً تكرأ من انني عشت
عاش حقت • انه أتر سباحة في كل خطا مرتبت فيه • لقد كنت
محبوب والسائلة والسائلة خط • لقد كنت رجلاً طويلاً واسع
الآل الى انا عرفتني • وبذلك تذكرين آخر من قبل رحيلتي الى روما
وميلان آخر ليلة ، لقد وايت فيما ربي التأم انني سأصبح
امبراطوراً ، ونا اسميت في الصباح كنت اذكر كل دقائق هذا
الوقت • تأيها حياي ناصحة • ونقلب بهذا السلام • ووصفت
تقاصيله حسب عيني ؟

ثم توفى مديها ريتشي رباح يفرغ الغرفة لولا عروصا ريتشي
تقبل ، سعاد انا قاتلا :

— وما أن وصلت الى عاصمة الامبراطورية ، حتى مدحت
بأخبار سرد كانوميوس • وقدرت أنه سيحتد الى برئاسة الحملة
لتأديبه هذا الرجل • ولكن قيادة هذه الحملة لم يعتقد لوالها لمن
هو أولى بها • فتقدم كانت تجرى الأمور في بلاط الإباطرة •
وفشلت الحملة بقيادة فاتينيوس • فاستدعاني الامبراطور وعرض
علي قيادة الحملة التالية مع منصب القنصل ، وذلك بشرط أن
أتزوج من ابنته • وكنت قد قضيت خمسة أعوام في شبه ضياع
أقرب العرصة المواتية • وقدرت انني اذا رفضت هذا العرض
انتهى أمري وتبدلت كل آمالي • فقبلت • وذهبوا بي الى مدينة
جوبيتر لاني زواجي منك أو لأمرك بمعنى أوضح • وتعلمت من
ذاك الحين أن أحتر جميع هذه الآلهة التي نعبدنا أسناماً • خلقت
ربطوا بين حياتنا في عهد جورو ، ثم ففسوا هذا الرباط في عهد

يعويتر ٥٥٠ ثم تزوجت من ثيودورا • ولقد أجمروا في حقها
 وأكثر مما أجمروا به في حتى أو في حبسك ، لأننى لم أكن أحب
 ثيودورا ٥٥٠ لقد رزقت منها بسعة لطفال • بين بنين وبنات •
 ولكننى لم أتوسم في أى منهم القدرة على ما كنت أعدهم له • ولم
 أبق فى ولدى الأكبر منها ما رأيته فى قسطنطين • إن قسطنطين له
 الشخصية ومزايه وكفايته • وأنا بحاجة إلى معين من يختلفنى على
 العرش بعد أن بلغت هذا السن وأصبحت مجهدا مكدودا كما
 البرين •

ثم عاد ليواجهها قائلا :

— اننى أعرف أنه ضابط كفى وأنه أب لابن قوى • ولكننى
 أعرف أكثر من ذلك • أنه ابن لأفضل أم • تلك الأم التى لم أسمع
 عنها الا كل خير • تلك الأم التى تحصلت ما تحصلت من عدا فى
 سبيل انصاف جماعة من المسيحيين ووقع الظلم عنهم • وهى التى
 منعها كبرياؤها عن أن تتحمل أية مشقة فى الحضور لمقابلتى من
 قبل لشأن من شئونها • حسنه الأم هى التى يجب أن تكون اما
 الامبراطور روما • بل وللامبراطورية الرومانية بأسرها • ساجدة
 رسولاً فى طلب قسطنطين حتى يكون ببائى • لقد رأيت الضابط
 السابق فافوتوس عند الباب • هل تسمحين بالاستفتاء عن خدمته
 بضعة أشهر • لقد وقع عليه اختيارى ليقوم بهذه المهمة •

وقعت الباب ودعا فافوتوس للدخول ، فدخل الضابط وحيا
 النحية العسكرية • فابتسم كونستانتينوس قائلا :

— هل لا زلت تذكرنى ؟

— آجل يا سيدي الامبراطور •

— الامبراطور • وكيف علمت بذلك ؟

— كنت استرق السمع يا سيدي الامبراطور •

فنهقه الامبراطور ضاحكا • وودعت الجدران اصغده ضحكاته
 الصالية • وقال لهيلينا :

— انه لم يختر • هو هو كما عرفته دائما • ثم أحاطه عسا
 والمهمة التى سيضطلع بها • ومرفه بعد أن فرغ من ذلك •

ثم التفت الى هيلينا قائلاً :

« اني مضطر للانصراف الآن . كما أنك بحاجة الى قليل من الراحة . وسأعبد الى كورير للنهاية بك . يجب أن تعودى فى المساء . لتطلعى على الأمر الجديد الخاص بالمسيحيين أولاً ، ولتضرى حفل اعلان تنصيبى امبراطوراً حتى ولو كنت ترمعين غير هذا . »
« أم الامبراطورة . » انها فى اكمبوليز ، لأن الجو هنا لا يناسبها »
« انى أريد من بلاطى أن يبدى احترامه للامبراطورة الأم مستقبلاً »
« الى اللقاء يا هيلينا فى مساء اليوم »

وانحنى أمامها مبتسماً وغادر الشرفة . « انحنى الامبراطور أمام المرأة التى يجلبها ويحبها ويقدرها . وخرج بخطوات اثبت من تلك الخطوات التى دخل بها . ينطى اقرب الى حلى الشيب منها الى حلى الرجل الهرم »

واتجهت بدورها الى الباب ، وكافتة تشمر بأنها فى حلم جميل سعيد . حتى الأرض التى كانت تخطو عليها لم تكن لتشمر بها . « ومسمعت فى كل ما يحيط بها أصواتاً متدفقة متلاطمة تطرقاً أذنيها :

« انك مستمتعدين كل شئ » . الصب والسلطان . « ما دمت قد عفت لغيرك . لا تؤثرين نفسك » وميضتك الله من فضله »
هكذا كلن يحدثها البانوس .

« فليكن حبك له أقوى من خيبة أمالك وأحزائك . إن من شأن مثل هذا الحب أن يؤتى ثماره عندما يحن الحزن . وليكن حبك أقوى من كبريائك ، لا تنسى هذا . ليكن حبك أقوى من كبرياء نفسك ، عندما يحن الحزن »

ينلك كان يحدثها الملك كويل الحكيم »

« بارك الله المستضعفين ، انهم سيعثرون الأرض وما عليها »

« انما نسمع هذه الأنغام السماوية تطرق أذنيها من اعلى »

ولما خطت لخروج الكفر فخلق قافوئوس فيها بعينين لشعاع
هيبه واعجابا وارتيابا .

انها لم تكن في اية لحظة من لحظات حياتها ، وحتى في ايام
شبابها الفنى ، في مثل هذا الحس والجمال . حسن الهناء وجمال
المعاصرة ، يسمان من وجهها فيكسوانه يقناع يطمر على ما خلفته
به الزمى من آثار .

- ٤ -

جلس قافوئوس ، وقد وضع قدميه في وعاء الماء الساخن ،
يشكو الى رفوس ما لاقاه من نصب في رحلته قائلا : .

- لقد ذقا الأمرين . وتكرنا في ازياء العبيد . ما اجمل ان
يسود المرء الى فيلوم . الى مستقره وقاره .

- لقد تقلمت بك الأيام . ما هذا السجج الذى اراه . ترى
حز باخ بك التقصم فى السن جدا لا تستطيع معه أن تدافع عن
نفسك بفرعك . لعلك لم تعد تستطيع أن تحمله .

- مهما يكن من أمر فاننى لم ابلغ بعد منك . لقد صالقتى اذا
أقص عليك ما مر بنا من أحداث . هلا التزمت جاذب العدم حتى
استطيع ذلك ؟ آه . لقد حدثت عن طنة قسططين واسراعه
بالاستئذان من الامبراطور جاليوريوس فى الحفل السهر ، وهما
لاحظه من نظرات لومستبوس التى عكست عدم اوفى حبه الى سقره .
فتظاهر قسططين ، بالاكتار من الشراب يادعى بان السر قد أفقدته
وبخيه . وتمكن بذلك من أن يراقب لومستبوس فى حديثه الهامس
للإمبراطور ، ويستنتج من عدا أن الإمبراطور سيعذر عن الإذن له .
وفعلا استمع الإمبراطور رئيس الحرس وكلفه بالتوجه فى الصباح
الى منزل قسططين واختاره باناء الإذن له بالسفر ، بتعيينه
قائما لأحد الدياق . ولما رأى الإمبراطور جاليوريوس أن قسططين
سقط بعيدا من كثرة افراطه فى الشراب ، أمر بحمله الى منزله .
وما أن أودعه الحراس فراشه وانصرفوا ، حتى نهض مسرعا

واستبدل ثيابه وأعددا الجوادين الذين وصلنا بهما وحكمتنا
 الى بيزطة على أساس الاذن السابق الموصول عليه من الامبراطور
 والذي لم يبلغه بعد بشي يفيد العلوق عنه ، حتى اذا ما تبينوا
 رحيلنا في الصباح ، كنا قد قطعنا مسافة تؤمن لنا طريقنا . وهناك
 تفكرنا في ذي العيبد وانضممتا الى احدي قوافل التجار حتى وصلنا
 الى ادرنه . وحرصنا على الا نتم حركاتنا عما يفاير مظهرنا ، حتى
 اننا اضطررنا الى مشاركة غيرنا من العبيد في طاسهم . وتسلطنا
 من ادرنه ثوب سهوة جوادين آخرين ، وكانت زوجته قد مبيتته
 اليها لتسد له عدة حربه بناء على توجيهه لها من قبل ، لانه كان
 واثقا مما سيحناك حول سفره من مؤامرات .

وهكذا انتقلنا من بلد الى بلد ، واستبدلنا جيادا بجياد ،
 وقضينا بعض الليالي في العراء ، وبعضها الآخر في حظائر الماشية ،
 وقطعنا المسافات الطويلة في الغابات وبين الجبال ، واعترض
 سبيلنا الكثيرون من قطاع الطرق واللصوص ، حتى وصلنا اخيرا
 الى بلاد الفال فانتهت كل متاعبنا . ألم تصيح بذلك بين ربوع
 امبراطوريتنا ؟ ووجدنا ان امبراطورنا المجيد قد أعد لنا وسائل
 الراحة وسبل الانتقال . فاجرتنا بلاد الفال في سهولة ويسر حتى
 بلغنا بولونيا ومنها الى قلدربد ومنها الى لندن ومنها الى هنا .
 وبعد ان رفع قمعيه من وراء الماء الساخن وقاملهما قليلا
 استطرد قائلا :

.. لم يسبق لي ان قطعت مثل هذه المسافات الطويلة متطليا
 سهوة جواد بعد آخر ، مواصلا سيرى وكفا وعدوا ، حتى وصلنا
 الى بلاد الفال حيث لم نجد من الصعاب مثل ما صادفنا قبل اجتياز
 حدودها . لقد قطعنا المسافة من شرق لورويا الى غربها فوق ظهور
 الجياد . وفي أعقابنا رجال امبراطور متعشش الى سفك الماء .
 الذي جد رائب في نوم لا يقل عن ثلاث ساعة على الأقل ، لم
 فراض وغير ...

وقطع عليه حديثه صوت هيلينا :

.. فاقونيموس

ولهش الرجلان وقفا كالصبية الصغار أمام استأذنها الكبير
- ان ولتى برغب فى مواصلة طريقه الى قصر الامبراطور فوراً
فاستعد لذلك بأسرع ما يمكنك ؟

- سمعا وطاعة يا سيدي .

قال ذلك وكان وجهه قد قد من صخر فابصمت قائلة :

- انا اعرف كم انت متعب . ولكنهم يدورن الخيل لكما
ولما انصرفت التفت الى رقومس قائلاً :

- الخيل ؟ لقد ضقت لهما بركوبها . . ساعتان فقط تفصل
بين عناء تلك الشهور والايام ، ثم تعود للاستأنف الركوب الى
ايراكوم ، ثم خلق هذا الرجل ؟
- كان الله فى موتك .

ومارونه رقومس على اولاده حته العسكرية وعدة سلاحه
وفى الطابق الأعلى ، قبل قسطنطين والدته قائلاً :

- سأخطرك بحقيقة الأمر اذا كان هناك ما يستدسى هذا
لطمنى . انه قوى اليتمين شديد الاحتمال .

ولما اوما اليها برامه مودعا ، خيل اليها انها ترى والده عندها
كان يلقى اليها بالتحية بهذه الصورة . من قبل واستعادت قولاً
والدها يوم ميلاد قسطنطين وقرارت بينه وبين ما سمعته منذ قليل
من فافونوس عندها كان يسرد على مسامع رقومس مقارنتها بما
باحثيازها اوردوا من الشرق الى الغرب . انه سينشأ على صورة
ايه ، بل وسيكون اعظم منه قدراً . انه سيحكم كل ارض يطاها
بعواض جواته ، لقد اجتاز اوردوا متطياً ظهر جسوده . الا
امبراطورها المستقبل ، وهو مقدر آمل امه وامايها .

وهبطت الدرج الى الطابق الاول ومنه الى مدخل الدار حيث
لوحث يدها مودعة ولدها وتابسه .

وما ان اختفيا من نظريها ، حتى استدارت الى رقومس قائلة
- رقومس ، الى بحرية الركوب . الى ذاهية الى ايراكوم ثم
لحقاها .

• الضابط قسطنطين •

بهذا اعلى ضابط الياوران قدوم الرجل القى بلغ صوته ولح
أقدامه مسامع والده ، وعرف أنها لولده قبل أن تقع عليه عيناه
بقامته المديدة ومنكببه المريضين ووقفته المسكوبة ، تماما كما
كان يبدو الضابط كونستانتينوس منذ ثلاثين عاما .

وكان الامبراطور جالسا في فراشه بعد أن قضى ليلة عمرض
فيها لاحسى لزلماته القلبية ، التي تكررت في الأسابيع الأخيرة .
وقد ساوره الشك في أنه لن يمتد به العمر حتى يرى ابنه القادم
من الشرق ، وبالفات في الليلة السابقة التي تعرض فيها لأزمة
قلبية شديدة . فلما أصبح الصباح ، كان احد ما يتوق اليه ، أن
يمتد به العمر بضعة أيام أخرى يستطيع فيها أن يلتقى بولده .
وكم كان فرحه شديدا ، عندما استلكن ضابط الياوران في مثوان
ولده بين يديه على الر قدومه . وأدرك أن ولده قد وصل قبل
الوقت المين له .

وعلى بعد ثلاث خطوات من فراش والده ، توقف الضابط
إلتساب وأدى التحية الواجبة قائلا :

— الضابط قسطنطين تحت تصرف جلالكم .

أنها لعانية عشر عاما مرت منذ أن رآه لأخر مرة ! قد أصبح
الضابط رجلا . . رجلا بكل معاني الرجولة والمسكوبة السليمة .
ورآن عليهما صمت مطبق ، لاحظ الابن بعد أن الوالد يجاهد لكي
يتنحى الى الأمام ، فاسرع راكبا الى جانب فراشه ، وشعر يثا
الرجل المريض ترويح على رأسه .

— انفض يا ولدى . ولتتمر ما لمأت به اليك . . لا تدع
للماضي يقف سائلا بيننا .

قاطاع قسطنطين والده قائلا :

— لقد فعلت ما فعلت في سبيل روما يا والدى . لم يكن
هناك معنى من ذلك .

— ان الدوافع غالباً ما تكون محل شك وريبة . ان المرء لا يستطيع ان يكون في تصرفاته محدود الدوافع . ان معظم تصرفاته بين بين . موزعة بين الأبيض والأسود وبين الخير والشر . وبميش المرء تحت ثقل افكاره المصترية المشوشة حتى يقضى بحبه فاذا ما وورى جسده الثرى . . . أصبحت عنه الأفكار او قل جهازها الفعال حيوانات حية . . . ههلا . دعنى اتم ما اريد قوله . مهما يكن من أمر تبريرك لتصرفى ، وبالرغم مما كان فيه من خير لروما فانه كان تصرفاً مجافياً لكل صواب . ولن يمكننى اصلاح ما أفسده الدهر . اننا نستطيع ان نعتقد الأمور ، ولكننا لا نستطيع ان نعالج مهناتها . ان ما كان قد كان-بصورته البشعة الظلمة . والظلم لا يمكن ان يصبح عدلاً .

ولعند الرجل وأغمر عيئه قليلاً ، ووجد الى ذهن والده ان يستعين بالطبيب الذى ينتظر فى الغرفة المجاورة . وكان الرجل قد مر ما يدور بخلد ابنه . الى سمعه يقول له لمرط دهشته :
— لا . . . اتنى اريد ان تكون بمفردنا . هناك الكثير مما اريد ان استفسر منك عنه . ناولنى هذه الكاس . حسن . ان النبىء يعيد للجسم حيويته . والآن .

— هل تركك جاليريوس لرحل لم اذك سمالت هارباً له .
قدم لى تقريراً مفصلاً بكل صغيرة وكبيرة .



فندما توقفت العربة فى ساحة القصر ، أمام الباب الرئيسى ، كان فى انتظارها عدد كبير من الخدم والموظفين الذين يحملون المشاعل . وما ان هبطت هيلينا من العربة حتى أسرع قسطنطين لاستقبالها قائلاً :

— كيف تسنى لك يا أمه ان تحضرى بمثل هذه السرعة ؟

— وهل حضرت فى الوقت المناسب ؟

— اجل يا أمه . ولكن كيف تسنى لك ذلك ؟ ان الرسول الذى يبعث به اليك ، قد قادر القصر منذ اربع ساعات فقط .

— لقد رايته منطلقاً فى الطريق . اتنى لم انتظر ان يبعث لى

باحد . لقد رحلت بعد وجيك بقليل . كيف حال .. حال
الامبراطور ؟

— لقد وصلت في الوقت المناسب يا والدتي . ههنا كل
ما استطيع قوله . انه في غاية الضعف .

— والامبراطورة .. ؟

— الامبراطورة يودورا لم تخطر بعد . انها مع اطفالها في
أكيسوليت .

ودشأت الى القصر يتبعها ولدها . والتت جماعات عديدة من
الضيوف والموظفين الكبار يقفون مع بعض بعض في ارباط ويرجلاه ،
بتهاسون ويتبادلون الأحاديث .

والجئت انظر الجميع الى الأم والابن وانصتوا ليما سيقول .
ثم ارتقيا الدرج الى الطابق الاعلى : حيث عابدها وجد خال
الباوران والأمناء بقل تجلة واحرام . لقد أدركت استحسان
منذ حصة إشهر ان زوجة الامبراطور السابقة قد .. خانت .. كما
عنده . بعد حضورها الحفل الذي أعلن فيه نفسه امبراطورا . لنا
للامبراطور المتنازل عن العرش . كما كانوا يعرفون أن الفصل في
حين معالجة الميحيين والمساء القوانين المساعة الخاصة
باضطهادهم يعود اليها .. وكانوا يرون في دعائها عن المسيحيين
أمرا يديها ، لأنها بمقتضى تعاليم هذا الدين تعتبر الزوجة الشرعية
للامبراطور ، حيث ان هذا الدين لا يعترف بالطلاق .

لم تأكدت منزلة الزوجة والابن بتلك الساعات الطوال التي
قضاهما قسطنطين مع والده منفردين ، بعد أن أصدر الامبراطور
أوامره المشددة الى الجميع بعدم اخطار الامبراطورة حيث توجد
مع اطفالها .

وقد لمست هيلينا كل ما تخلف عن هذه التصرفات والمظاهر
من مشاعر في نظرات القوم التي كانت خليطا من الإعجاب والترقب
والشك ، والرجاء ، وهي في طريقها مع ولدها الى غرفة الرجل
المحتضر .

هنا أصبحا عند باب غرفة قال قسطنطين لوالدته :

« لقد طلب بأن يراك على انفراد . سأنتظر هنا »
 وفي هدوء دخلت وتسلمت من لرائى الامبراطور وجلسنا
 عند قدميه . وتاملت وجهه واندركت لأول وهلة انه فى النزع
 الاخير . الا انه شعر بوجودها فتمتم فى صوت خافت وهو لم
 يرك مقعص العينين ؟
 — هيلينا ! !

فاجابته بصوت رقيق هادى :
 — هنا يا عزيزى .

فايتسم راغيا . وكان حضورها ووجودها الى جانبيه قد أعاد
 له بعض مظاهر الحياة ففتح حينئذيه وطلب اليها أن تعاونته على
 الجيوش . وبعد أن علوته على ذلك شرع يتحدث اليها قائلا :
 — لقد مررد قسطنطين على مسامى كل ما كان من شأنه . وقد
 اركعت الى ما لسته من حديثه عن نفسه وعن تعرقاته . . انه
 هيسمطيع أن يحمل الصب . . ويمكن بمعاونتك فى بلدى الأمن
 أنا مطمئن مادمت مستكونين الى جتيه . . لا تنسى نبوة والدك . .
 انه سيكون اعظم شانا من ابيه ، اطلبى اليه أن يدخل . . فسرمان
 ما سائرلكما ؟

واستلعت قسطنطين الذى وقف بجانبها أمام فراش والده
 ليستمع اليه قائلا :
 — انك مستولى الحكم . . وأنا اهد اليك بأطفالى . . واضح
 مصيرهم بيد يديك . . وسأباركك بقدر ما تحسن اليهم
 وللإمبراطورة انك متضطلع بمسئوليات جسام ؟

فأدما اليه ولده بموافقته ثم طمأنه . . فسأله والده أن يلصق
 إكبار الضباط والرسميين . وصدع الابن بما أمر به . وغصت
 الحجرة بكبار رجال الدولة . والتزم الجميع الصمت وهم
 يستمعون الى ما يقوله أهم الامبراطور فى صوت خافت :
 — اننى راحل عنكم . ولعلكم تشتركون معى فى رغبة واحدة
 ألا وهى ألا يحكم يوما ورجالها الكبار أى غريب عنهم . وستجدونى

كى ولدى قسطنطين بشتكم . وسجلون كيه الشخسر الجدين
يوالده ويوالده فلافيا جوليا - هيلينا - أوجستيا .

وكان لاصوات الواقعة الثمينة من قلوب الحاضرين ، اكبر
الآثر فى بحث قيس من الحياة فى الرجل المحترم حتى يستطيع
ان يواصل حديثه :

- انا اهدى اليك يا ولدى بالحكم من بىدى . وعليك ان
تصح باولدى دموع المظلومين وتنتقم لهم ، لهؤلاء المسيحيين الذين
يتعرضون فى جهات اخرى لكل انواع الجور والمسفاه .

ولم تماك هيلينا نفسها من ان تركع جالية على ركبتها وقد
لظت وجهها بيديها . . انه يريد ان يرضيها فى آخر لحظة مع
لحظات حياتها . . يرضيها الى ابد حد . . يرضيها باكثر مما كانت
ترجو منه . . ورايت اليه بعينين تفيضان شكرا وحيدا وتقديرا .
وريات فى وجهه كل تعابير الحب الصامت العميق . . حب الصبور
الذى لم تؤثر فيه الاعوام الطوال والاحداث الجسام ، انها الحياة
أخذنا مع تيارها وتجرفنا أمامها ، فلا نشعر مرور الأيام
والاعوام ، لم نجد انفسنا وقد بلغنا الشاطئ الآخر ولم نحقق
ما نريده نحن ، بل عشنا كما ارادت لنا الأقدار .

وفى هذا الوضع لفظ كونستانتينوس انفاسه الأخيرة . .
وبهذه الخواطر كانت تتامله هيلينا .

وطلت هيلينا فترة جاثية على ركبتها ، وقد وقف كبار القواد
من خلفها فى صمت خاشعين . وكان يتوسطهم بخطوة الى الامام
قليلا ، قسطنطين . لم يدا المسافى يتحول رويدا رويدا لينتقل الى
المستقبل فى شخص هذا السلاق القوي ، الذى استدار ليوواجه
الواقفين من خلفه ، وكأنه يقول لهم :

- انا المستقبل ! !

وراج يتاملهم واحدا بعد آخر ، وكأنه يريد ان يرون كل واحد
بقدره وقوة شخصيته وشجاعته . وكانت هيلينا فى حدة نسل
السيف القاطع ، وكان فيهما فجر المستقبل وزرغ شمس القوي
الجديد . . قوة وشبابا وعزما وأملا .

الجزء الخامس : ٢١٢ ميلادية

— نخوة فينيقية .

بهذا خلق قسطنطين على تقديم الخوة اليه . واستغرد يقول :

— هل في عتورهم طيما واحضرها الى اية دلالة ؟ هل
لتفادين أو تطيرين من مثل هذه الاشياء ؟

وكان واقعا في مواجهة مدخل خبائه الذي نصبوه له . وكانوا
ينصبون آخر لوالدته ، التي كانت تجلس على مقعد وقد انعكس
نضوء الصباح الخافت على وجهها ، وبدأ له انها لم تتغير كثيرا عن
كفي قبل ، لا في ملامحها ولا في طبعها ، ولما لم تعقب بشيء على
سؤاله استغرد قائلا :

— اننى سعيد بقدمك يا امام . جد سعيد . انها مخاطرة
هناك بدون شك . ومع ذلك فانا سعيد بقدمك . انك تنهين نهج
والدك ، اليس كذلك ؟ تقوين دائما في اللحظات الحاسمة !
وظلت على حالها ، ملتزمة جانب الصمت لا تعقب بشيء .

واستغرد في حديثه قائلا :

— اننى مدين بحياتي لحضور والدك في الوقت المناسب
عندما تأملت الأمور عند مولدى . اننى لم انس ولح اننى هذه
القصة ما حبيت ، لم كان قدومك الى القصر الإمبراطورى في
اللحظة التى كان والدك يفوق فيها الحياة . ، لقد حضرت مدعوة
بقرارك التى لم تخطيء أبدا . ولتى لسعيد بقدمك ، لأنه يتيح
الى الفرصة التى كنت افرقها لتحدث اليك في كثير من الأمور .
ولقد كنت أعرف انك تتجنبينى وتباعدين عني . حتى اننى لم أكن
أعرف اين أنت . فأين كنت ؟ لقد كنت مضطرا ان أقبل ما فعلت
يا امام . لم يكن يومى غير ذلك . ولقد توقعت ان يفضلك مصرغى
لأنك كنت تحبين مبرقينا . وكذلك انا ، كنت احبها وملتزمت احبها
ولكن هذا هو شأن الحياة يا امام . ولتى لاحسن الآن بأحاسيس

والذى عندما اقدم على فعلته هناك . الا ان المرء ليس حرا عندما يكون امبراطورا . انه اكثر عبودية لطلبات منصبه من عبودية لرفيقه . ان الامبراطورية تتطلب من التضحيات النوة الكثير ، ولكنها تتطلب من رئيسها اكثر مما تتطلبه من رجالها . انها لا تتطلب من هؤلاء الا بالتضحية بالدم . اما رئيسها - الامبراطور - فانها تتطلب منه التضحية بالروح . . . بالذات . . . بالهنة . . . براحة القلب . لملكه لخدمته ما اعنى .

ولم تنبس السيدة العجوز الجالسة في مقعدها بينت شقة ولم يكن هذا الجبل المشرف على الخيم يكثر صفته منها . فقال :
 شبرات تهتز خضبا :

- اعرف ما يقضيك . انه ليس مريض ليترافينا فقط . . . انه موضوع ماكسيميان ايضا . ولكنه كان يجب ان يموت - لم يكن يومى الا ان اقبل ذلك - لطهم لم يصارحك بالحقيقة كلها لقد تمادى الرجل في غبه حتى حاول رشوة بعض ضباطي القربى وانه هو الذى اذاع بين الناس ثبا مولى الكلاب . وكنت واقفا من ان الرجل لم يتورع عند قتل ابته من عملي كل ما يستطيع لي سبيل استعادته لرداه الامبراطور الاحمر . لقد نكت الرجل بهذه مع ذلك ياتوس ونكت بهذه موى . فكان من المتعين القضاء على هذا الرجل ، يجب ان تتبينى كل ذلك يا اماء .

وجرى اخيرا على ان يواجهها . فلاحظ انها مفعضة الصبيح مملكة لا تتحرك . فاصرع يركع عند قدميها ، ليجلسا قد استسلمت فكرى كطفل متعب مكفود . ترى مثل متى كان ذلك ؟ لقد وصلت بعد انقراض مجلس الحرب مباشرة ؟ لقد اعلن فاليتيوس قدومها وهم يتناولون في مجلس الحرب ؟ فقام الضباط ليخطوا المكان كلام والابن في هذا اللقاء ؟ بعد الطعنة الطويلة الامد . وعندما اتلف الاجتماع ، احضروا له الخوذة الفينيقية التى لاحظت انها لم تزل بيده .

ووضعها فوق احصى الناضد التى كانت مقلقة بمختلفة الخراط والحط الحربية ، فحدثت صوتا فتحت هيلينا عينيها

على ارضه لترى والدها راكبا منذ قديمها .. كحنت عليه بمبتين
واى ليهما ما كان يراه من حنان مثلما كانت تحنو عليه لى المهد
تلقا ..

ومرى عن قسطنطين . وابتم فى وجهها راضيا . وردت
عليه اجسامته بأخرى اعرض منها .. وضمت لى صدرها تقبله
وتقبلها .. وهاد يسألها :

- اين كنت يا اماء طوال هذه الفترة التى اجتمعت فيها عني ؟
- فى جولشيستر حينما ، وفى فيلوم حينما آخر ، لقد كان
لدى الكثير من مهم الأمور هناك .

وتذكر انه لم يمرض عليها شيئا فأكله . فلما عرض عليها اجلبته
بانها تناولت عشاها فى الطريق . وان فافونيوس لم ينس هذا .
- انها خفى سنوات يا اماء .. وبالحق من أعوام .

وكان يتسائل فيما بينه وبين نفسه ، مما اذا كانت مستحده
فى موضوع مبتريتنا أو فى موضوع ماكسيان . كما كان
يتسائل مما جاء بها فى هذا المكان أصلا . ثم سمعها تقول له :

- لقد تحدثت فى طريقى الى كثير من رعايك . ولقد كانوا
يسألوننى لآنى الأم التى أنجبتك . لقد كنت حاكما عادلا حكيما .
والى انضم اليهم فى رأيم ؟ .

- انك تلحقين على قلبى السرود يا اماء . لقد كنت اخشى
حكمك على مدى صلاحية الطريقة التى أدركت بها زمام الحكم ؟ .
- لقد كنت ادمو لك بالتوفيق طوال هذه الأعوام . لطبائعا
وجدت أن اتصل بك وإن أراك .

- ولما تأخرت طوال هذه السنين ؟ .

- لأننى كنت أريد أن أفرد بك ، فانتظرت حتى ثم ذلك .

آه . انها فاوستا . ان امه كانت تحفر منها ، كما كانت فاوستا
فى الأخرى لا تنعطف نحوها . ان المسألة بالنسبة ليهلينا مسألة
يهلينا . انها لم تكن تفر هذا الزواج . هذا الزواج من ابنة الامبراطور

ماكسيميان لنوع سياسية • هذا الزواج الذي فيه اقتضت على
بحق الزوجة الأولى ، كما حدث ذلك من قبل معها .
ولكن .. أو تنتظر كل هذه الأعوام ، ثم تختار لحضورها هذا
الوقت بالذات ؟ ما هذا الذي أتى بها إلى ميدان القتال ودفعها
لتحمل عنه هذا السفر الطويل ؟

١٢ - لعلك لا توافقين على هذه الحرب يا والدتي ؟
١٣ - قسطنطين ، إن الحرب حدث من أحداث البشرية البشعة •
وإن كان ماكسنتيوس حاكم قاندر ظالم • وقد ضلعت من حنقى عليه
ما سمعته بشأن سوفروينا • سوفروينا زوجة حاكم روما التي
انتهجرت بطعنة من خنجرها هربا من بطش ماكسنتيوس وحسفه
والتي كانت مثلا حيا للاضطهاد والجور والظلم •
- لقد كانت مسيحية يا أماء ؟

- أجل • وإن الله سيكون معك مادمت مع المظلومين •
- الله ! أنك تعرفين يا والدتي أنني لم ألق من العلوم غير كل
بما يتصل بشئون الحرب والقتال • ولكنني بالرغم من ذلك كنت
أشعر دائما بأن هناك قوة أعلى من البشر ، وأعلى من بسند أن
أصبحت امبراطورا • وكنت أتمثل هذه القوة في الشمس مصغر
الحبة على الأرض •

- أن الشمس جزء من الوجود •

- أن هناك منطق واحد يميني في عبادة هؤلاء المسيحيين •
وهو إيمانهم بأنه واحد • وأنه لمنطق مقبول يتفق مع طبيعة
الأشياء • أما ملعدا هذا من معتقدات فلا أقتنع به ، ولذلك لم
أستطيع أن أتبع دينك الجديد •

فلتضرب لي مثلاً •

- كهذا الذي يزعمون عن تجسد الله ليصبح إنسانا في شخص
المسيح ، يعيش بين الناس ويضطرب فيما يضطربون فيه ويأكل
من طعامهم ، ثم يصلب ويموت • أنك تظنين أنني أكثر مما يحتمله
عقلي إذا أردت أن أصدق أن الله - تلك القوة العليا بكل جلالها -

وعظمتها ومزجها - يتناول ليصبح أتمنا لا حول له ولا قوة .
 لا . . لا . . يا أمه ، إن الله أكبر من كل ذلك وأجل شأنه ، أنه قوة
 قديمة لها جلالتها ولها هيبتها ولها غموضها . .
 ولما أليتها الحيل معه ، فضلت أن تسعج لتستريح .

- ٢ -

قال قسطنطين للقائد إسكليودانس :

- إن ما أصدرته من تعليمات رئيسية من البساطة بحيث يمكن
 لكل قائد أن يفهمها ولا يفشل منها شيئا . إن هذه الحركة ستكون
 معركة أجنحة بمعنى أننا سنعمل قريبا على سلاح الفرسان . هل
 فهمت ما أقول ؟

- إن كل فارس من فرسان جيشنا سيقتله ثلاثة فرسان منهم .

- وهل خيل اليك أنني أعرف غير ذلك . أما كان من
 الواجب عليك أن تعرف أن فرسانهم وجيادهم ليست كثرة ولا نساء
 لفرساننا وجيادنا . أنهم وأفرارهم قليلو الفاتية . أنهم
 لا يجيدون الكر والفر . لقد اتخضتهم كثرة الطعام والخمر لقرتهم
 من العاصمة روما . لم يبق أمامنا إلا هذه المرحلة وتنتهي الحرب .

- مولاي الامبراطور . لقد كان في شرف القتال معكم ومع جلالة
 الامبراطور والدكم . وأنا أعلم الناس يشجعونكم وأقلامكم ، إلا أن
 العدو بالرغم مما فقد في تورين وقبرونا يفوقنا عددا وعدة . وهو
 ينتظرنا في هذه المرة ويتأهب للقائنا . إن منصر المفاجأة ليس في
 صفنا في هذا الهجوم .

- ليس العدو وليست العدة كل شيء ، إذا ما قيسنت بأهليكم
 أخرى ؟

- ولا تنس يا محسن الحس من الامبراطوري الذي يضم
 أحسن مقاتلي الامبراطورية .

— تلك الطغمة الفاسدة التي كانت تبجح الإمبراطورية على من
القرن أن يدفع لها ثمنها أهلى. وحق الآلهة لأقسين عليهم وأحطمتهم
تحطيمًا . أن لم يكن لهذه الحملة من فضل غير القضاء عليهم ،
لكفها هذا فخرا . سأتولى بنفسى قيادة الهجوم ضدهم . وإن غلبنا
لنناظره قريبا .

— الإمبراطور هو الإمبراطور . ما علينا إلا أن نؤمر فنطيع له
ونذير آخره — أن هذه الحال لا تـمره . وما هذا القائد الماثل
بين يديه إلا مرآة تمكس ما يدور بخلد غيره من قواد . أن الحرب
لا تكسب بهذه النفسية ، يجب على الجندى أن يؤمن بالنصر . .
أين هو الإيمان والثقة بالنفس ؟ أنه يجب أن يجسم ويلقى فيهم
خطابا يشعل نار حماستهم ويعيد لهم الثقة بأنفسهم .

— إلى اللقاء عند الفجر . أجمع لى جميع القواد والأركان . .
واستغرق فى تفكير عميق ، أن معركة الفد ستكون الفاصلة .
أن ماكستينوس حشد له جميع قواته . أنها لن تقرر مصيره
ومصير الإمبراطورية قط . أنها ستقرر مصير المسيحيين أيضا . .
أنها ستقرر مصير العالم كله .

وخطا متافلا نحو مدخل خباته ، حيث وجد تابعه فاليتيوس
يحقق النظر فى السماء . ولما سأله عما يسترعى انتباهه فى
السماء ، أشار الجندى بيده إلى الشمس فى أفق القروب . .
وشاهد قسطنطين عجبا رأى الشمس ترسل من قرصها شعاعا
قويا متوهجا مزدوجا متقاطعا . .

— فاليتيوس ، هل رأيت ما أرى ؟
— أجل يا مولاي .

— إن هذين الحيطين يشبهان الصليب . عجبى لما أرى
ونحنا إلى الداخل ، والتقى بنفسه على فراشه مستعرضا ما أعده
من خطط للقتال . ثم عاد ليستعرض تلك الظاهرة التى رآها فى
الافق عند مقرب الشمس . . واجهده التفكير ، فطلبه الكرى . .
وامتسلم للنوم .



وصفاً من قومه ، ووجد نفسه يردد ما قرأه في إحدى المقطوعات الشعرية :

— يهنا مستنصر .. يهنا مستنصر ..

والقى أمام عينيه مشهد شعاع الشمس الذي هطله في مهبية صليبا . ونادى على تابعه الذي أقبل نصف نائم ، ليرى مولاة واقفا أمام مكتبه ، مجددا النظر فيما أمامه من أوراق قاتلا :

— اكتب ما أمليه عليك . أمر عام لقوات الجيش المقاتلة ..
وراح يلقى أمره الذي ألهم به .

صحت الدنيا في يوم ٢٨ أكتوبر على صبح رطيب تكاثفت فيه امتار الضباب . واستيقظ بمبوركس على أصوات الحركة التي دبت في المخيم ، وحمل فيجا أمامه ليعد آثار النعاس عن عينيه ، وليرى فينتوس مرتديا كامل هندامه متبثا خوذته على رأسه .

— ماذا بك ؟ إن نداء الصباح لم ينطق بعد . كم الساعة الآن ؟ أن الشمس لم تشرق بعد ؟

ثم أقبل كروكاس ، وتبعه آخرون ، حتى بلغ عدد الحاضرين العشرون تقريبا . وراحوا يتحدثون النظر فينتوس الذي كان يبحث من درعه وحسامه ، فتسلل بعضهم .

— نرى ماذا حل به ؟ ألمه يشي في قومه ؟

— أولى بكم لن تستعملوا ؟ لقد حل اليوم الموعود ..

— إن اليوم لم يبدأ بعد . لن ؟ التفر ؟ لم ينطق بعد ؟ تلك قد جنت ؟

— إنه اليوم الموعود . انكم تصرون ما أمري . ألم قروا تلك الظاهرة عند غروب شمس الأس ؟

— ماذا ألم برجال الجيش ؟ يا تلك التخراعات والإوهام ؟

— لقد كانت علامة الصليب . إنه اليوم الموعود ..

وصمغوا أير ينفخ في الصور .. ووصلت إلى مسامعهم دعوة الباقين بجمعة الشاهين والاستعداد . ثم دخل أير عليهم الخيل

يصحبه جندي يحمل جرة بها سائل أبيض . ولاحظ الجميع أنه لما
خط على خوذته صليباً أبيض مستعرض الخطوط . ثم قال لهم

— بأمر جلالة الإمبراطور ، يجب على كل محارب أن يرسم
الصليب على خوذته وعلى درمه في دقة وعناية .

وقدمهم فيتوس صادعاً بالأمر في جلال وقلمسية . وتروى
الآخرون متسائلين عن السر في هذا الأمر . فقال أحدهم :

— لعل الإمبراطور قد تفاضل من أشعة الصليب عند الغروب .
فقال لهم فيتوس :

— أجل . وانها وأيم الحق علامة النصر .

— إن فيها بسحراً .

— انها سحر العالم كله . انها علامة النصر ، انها دلالة عصر
جديد ، لقد سبق أن أخبرتك بذلك يا كروكاس وأنت يا بمبوركس
هتلما كنا نصبر جبال الألب كنا نعلم بأننا سنسوقهم أمامنا سوقاً
الأنعام . . انه معنا . . انه القوة الخارقة العليا التي لا يقف في
وجهه شيء . لقد انتهى أمر ماكنتيوس !

فقال له بمبوركس :

— هل رأيتم ؟ انهم هناك على شفاف التيبر . انهم يبلغون
لثلاثة أضعاف عدداً .

— حتى ولو كانوا عشرة أضعاف عدداً . لقد انتهى أمرهم !

وأمر بمبوركس أن يسرع بتنفيذ الأمر الإمبراطوري ، وحلوا
خطوه سائر الجند والضباط . وخرج فيتوس من الخيام إلى المئات
من الجند وقد رسعوا على خوذاتهم ودروعهم علامة الصليب بالسائل
الأبيض !

وسارت في المسكر حركة غير عادية . وبادى الصباط من
يعمد بالنساء المسكرى لينتجة الجيسج . واصطف الجنود على

الجانبين يفسحون الطريق لركب الإمبراطور القادم لتفتيش الطابور
 كما تقضى بذلك التعليمات العسكرية قبل الهجوم • ووقفت القوات
 تعامل القادحين في الطليعة • فرأوا أنهم جميعا قد وضعوا علامة
 الصليب على خوفاً منهم وعلى دروعهم • ثم أقبل الإمبراطور وسط
 حرسه الخاص من الضباط • الذين رسموا العلامة للفتحة بسائل
 الفتحة تمييزاً لهم • أما الإمبراطور فقد رسمت العلامة على خوذة
 ودرعه بماء الذهب الخالص • وبدلاً من أن يرى رجال الجيش حامل
 العلم بنسرة اليهود ، رأوا في مكانه علامة الصليب موشاة بالحرير ١٥

٠ الجزء السادس : ٢٢٦ ميلادية

من الامبراطور ، صاحب الجلالة العظمى لستيفان بعون متكمين
البشرية يسوع المسيح ، امبراطور العالم الروماني من بريطانيا
الى فارس ومن نهر الدانوب والراين الى نهر النيل . . الى المبجلة
كلانيا جوليا هيلينا ، مع تحيات واحترام والدعا الخاضع الطبع
لوالدة القدسة العظيمة . .

لقد مرت ثلاث عشرة سنة تقريباً منذ ان اقتضت قواتنا التي
باركتها دعوات والدتنا ونداستها علامة المسيح بن مريم وذكره
الحلقة بكل جدوة وفخر ابواب روما .

ولم تمر هذه المدينة في تاريخها بمثل ما مرت به من نصر
لايضارع حقيقته قواتنا ضد العدو الذي كان يقفها عددا وعدة .

ولقد كان من حسن التوفيق ان تنجح في مسلكنا لرشادات
اروجيه والدتنا المبجلة ، التي بصرتنا بوجوب استعمال العلم مع
لعدائنا المنهزمين ، ونشر روح المحبة في جميع ارجاء الامبراطورية
والتي بفضلها شيدنا المنشآت المختلفة لرعاية الياسى والارامل
والعجزة ، فضلا عما اقيم من محلات للعبادة ، ونخص بالذكر منها
الكنيسة الذهبية في انطاكية وكنيسة الاثنى عشر حواري في مكان
الرسالة . . وكان من المفروض بعد كل ما وضحته لك من اسباب
الامن والاستقرار ، ان ننعم في هدوء بشمار جهد هذه السنين
الطوال . لولا هذا الامر الذى يفضى مضجعتنا ويضيق به صدورنا ،
وهو الذى حفزنا للكتابة لوالدتنا المبجلة فنحيطها علما بكل مايجب
بهذا الطرف الطارىء من ملاسنة . نرجو ان تكون محل تقديرها
وعطفها .

ولعل والدتنا المبجلة تذكر مدى ما بللناه من عناية بتعليم
وتنشئة ولدنا الاكبر كريسپوس .

ولقد أحسنه بكل ما يجب أن يتوافر له من رعاية . وكفونا له
وجوه العسكرية ومواهبه العالية فأسبغت عليه من مطلقنا الكثير ،
وأصلدنا أمرنا بتعيينه قيصرا ، وهو لم يتجاوز بعد السابعة عشرة
من عمره .

ولقد برهن بحق عن جدارته بهذا المنصب ، سواء في إدارته
لشئون بلاد الغال بكفاية وحداية ، أو في مشاركته في الحرب ضد
الطاغية لوسينيوس وسماحته في إحراق النصر على قواه .

غير أنه قد اتضح لنا بعد ذلك أن هذه الانتصارات كان لها رد
'لعلمها السيئ في أشعة الخووف في نفسه ، هذا الخووف الذي تنفتح
فيه بعض أبعاده المزعج واسترادوا منه . ولقد كنا لا نحرله
صاكتا إزاء ما يرفع اليانا من تقارير الواحد بعد الآخر عن نزواته
وأرائه المتطرفة . ولقد تناولنا هذه الأمور برفق وعطف أبوي .
ولكنه لم يرمو ولم يستجيب لتوجيهاتنا ، مما أدى إلى أننا رأينا
أنه من الخير له ولنا أن ننقله إلى إحدى وظائف إيلياط .

وقد جد بعد ذلك ما ضاعف من خطورة الموقف وزاده صعوبة .
فقد نسي اليانا من مصادر موثوق بها ، أن القيصر الشاب ، وقد
أعتمه أطمعه ، كان يدير مؤامرة ضد العرش ضد حياتنا . وأنه
ليحز في نفس أن تضطرن الظروف إلى سرد مثل هذه الأنواع
الشائكة ، وما استتبعته من إجراءات لتتضتها المحافظة على كرامتنا
وعلى سلامة الإمبراطورية .

وكما سموت دائما ، عندما تواجهني مثل هذه المشكلات ، وعندما
أكون بمسبيل اتخاذ قرارات خطيرة ، صارحت بالكتابة إليك مستلهما
عذك الوحي ومسترشدا بعفوك السيق لكل ما يستشكل على أمره .
حرو في روما في شهر يوليو من السنة السابعة والسبعين بعد
الآلاف من تشييد المدينة . قسطنطين .

ذاك كان هو الخطاب الذي تلقته هيلينا على إثر عودتها ، بعد
زيارة قبر والدها إلى منزلها الصغير في كامبودونم . ولقد تيات
كمادتها دائما ، وهي كتسلم الرسالة من البعوث الإمبراطورية ،
لها تحمل إليها ما لا يسر من أتباعه . بل ولقد اشتكت من الرسالة وهي

تقصها رائعة الموت . ترى موت من؟ كسطنطين؟ انه لم يزل حيحا
 معاقا . اذن فمن عساه يكون ؟ . وما ان اطلقت على الرسالة :
 حتى اقلت بها على الأرض ، وهي ظن هؤلاء الوعاة الذين آمنوا
 يا بني الأب وابنه . وكانت في عصبية ظاهرة :
 - نرىتنا .

فما ان مثلت الوصيفة من بين يديها حتى أصدرت اليها امرا
 باعداد مريتها وحفاتها :

- اننا نذهبون الى روما . اجل الى روما ولا تلحقى على السؤال
 اغترى انفريدا ورجال السلطة بالجناء لاعداد سفينة نبحر بها الى
 بيزنتنا . سمبر القناة الى فرنسا ، ثم تقطع المسافة برا . هيا
 اسرعي .

واسرعت الوصيفة ، وهي تعجب من امر هذه السيدة التي
 بجاوزت الرابعة والسبعين من سني حياتها ، ولم تزل فيها تلك
 الاحوام بطولها التأثير الذي يحد من نشاط الآخرين .

ولم تقلق في طريقها الى روما من التفكير في امر كريسيوس
 الذي كان سورة طبق الأصل من جده . كريسيوس الشاب القوي
 الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، كريسيوس هذا
 يتأمر على حياة والده وعلى عرشه ، كيف سمح كسطنطين لنفسه
 ان يصدق مثل هذه المفترقات من ولده ؟ ليس هذا من خلق ابتها .
 انها ظامرة لا تتفق وما جيل عليه ، انه واقع تحت تأثير غيره . ولم
 يكن من الصعب عليها ان تهتدي لصنم هذا التوجيه الاكبر . انها
 لاوستا بدون شك . انها تعرض كريسيوس للعرض له كي يسمع
 الطريق امام اطفالها . وانها لا تريد ان يتعرض ابتها كما تعرض
 اليه ابنا الامبراطورة يودويا من قبل ، وان يرث الابن من الزوجة
 لاولى عرش الامبراطورية ، كما ورثت زوجها العرش من والده .

وكانت ترجوان تصل قبل فوات الاوان « ان الانعزمد ان نلتنا
 صجوما ، استعجيل نهاية ضحيتها .



— أسقف يا مولاي ، لقد وصلت متأخرة .

— بذلك كان الأسقف اوزيوس يلتقى بالنبي المذبح على مسامحة
الامبراطورة الأم .

— لقد قتل القيصر كريسبوس في يولا من اسبوع مضى . لقد
بذلت أقصى ما في وسعي لاحول دون هذا . ولكن الامبراطور على
اختلاف العادة لم يستجب لي في هذه المرة . لقد كان يرفض ان
أناقشه في ذلك ، بالرغم من منزلتي عنده .

ولم تخرج خالجة في وجه الامبراطورة الأم . بل ظلت جالسة
على سكون وصمت مستندة يديها على عصاها . وراحت تردد بعلا
قليل :

— نقل السهم . لقد حرصت على ان اصل الى هنا في اقصر وقت
ممكن . وبالرغم من ذلك وصلت متأخرة .

— لقد وقع ذلك منذ اسبوع يا سيدي . لم يكن من الممكن ان
تصلني يا سيدي في الوقت المناسب ابدا . انك لم تقصر في شيء
. . لقد قمت بما يجب عليك بقدر استطاعتك . . اننا لا نستطيع
ان تمنع وقوع . . .

— وقوع المخطور . . لم اكن اصدق ان نبوءة والذي مستحق
يمثل هذه السرعة . . لقد قال عند ولادته :

— انه الموت بالنسبة لولده . .

— والقبلة لانه لم تنس الشطر الآخر من النبوءة .
عنى مستقبليته .

— لم يعد هناك أي داع للعجلة . بعد ان علمت بما حدث منك .
وبما توجهت باكر لمقابلته .

ثم انكأت على عصاها وهي تميل الى الامام متسائلة :

— خبرني . ما هو رابط الى هذه الزاوية ؟ هل لأمي الابن على
العرش وعلى حياة والده حقا ؟

« على حياة والده ؟ انى لم اصنع بشئ من هذا القبيل . ولكنى
كنت قد سمعته لما صدقته . حقيقة انه كان شابا له مقلامه وآماله
ولكنه لم يكن ليتأمر على حياة أبيه . لا . لا . انى لا اصدق شيئا
من هذا القبيل ، مع ذا الذى اتباك بذلك ؟

« الامبراطور فى رسالته التى بعث بها الى . وقد اخبرنى بذلك
فى صورة الوثائق المتأكد من الامر . وانك لتعرف خير المعرفة من
هو المسئول عن تسميم أفكار الامبراطور .»

ولاذ الاسقف بالصمت . فقالت له هيلينا :

« ان صحتك أكثر قصاحة من كلامك . لا تريد ان اسمع
واياك .

ثم نهضت من مقعدها وتوجفت فى كعد وقيظ لائلة :

« سيدى الاسقف ، طيفقرونى الله . لقد فشلت فى تحقيق
برصائلى فى هذه الحياة .»

ونهض الاسقف بدوره لائلة :

« كيف تقولين هذا يا مولائى ؟ انك من يرجع اليه الفضل فى
كل هذا الايمان الذى يتعم به المسيحيون . اتنا نميشى دون خوف
أو وجل . لقد رمت الينا حقوقنا الادعية على يدك . . . آفميننا
المهدورة .»

« وملا يجلدنى اذا ما وضعت العالم كله فى انى ، فى وقت
لقد فيه ابلى روحه . انى لم . . . لقد مرح هذا الابن زوجة
الاولى فى سبيل اطماعه . ثم قتل والد زوجته الثانية فى سبيل
العرش . واخيرا ما هو ذا يقتل فلانة كينه . ترى اى مخلق هذا
الذى اتبعته ؟»

« سيدتى . سيدتى .»

« هل تصالح هذه اليد المخطئة بالدماء لأن تقيم مملكة يسوع
المسيح على الارض ؟ ترى هل كنت اعد لتعاليم شيطاننا ورجينا ، لا
هناك رجينا لله .»

السائيا الاسقف ان تعود وتخل لها مبطسا قائلا :

— انك جده متعبه يا سيدتى ، والا لما كنت تعوت بمثل مسمعته
هناك الآن . لقد جاتك الصواب فيما تحدثت به . انك لست
مسئولة عن النفس البشرية وما سويت به . ثم ان هذه النفس
ليست معصومة من الخطا . لقد اخطأ القديس بطرس نفسه ، وكان
على الوقت نفسه موصفا لتقدير المسيح ، وعلى صخرة قبره بنيت
كنيسته . لقد ولدنا وولدت معنا الخطيئة . اتنا لنا منزحين منها
« ولم نخل النفس البشرية من ثواب الجشع والامانية والميل
الى العنف والتجبر . ان النفس البشرية ان تنزهت عن كل ذلك
وتطهرت من ادواتها عادت بنا الحياة الى ارض النعيم والجنة مرة
اخرى . لقد مرت بالعالم آلاف السنين وهو على هذه الحال ، وان
لعمري اشعاف اشعافها يستعيد عهد النعيم الاول . لقد رايت
بشائر هذا العهد ، وقلرتك ان تكونى الوسيلة لتحقيق الكثير منه »
اقبى رجل واقبى يا سيدتى ، لا احب ان ابتعد عن الواقع كثيرا .
لقد حققنا الكثير ولم يزل امامنا اكثر منه . ان قوة الشر في
هتنا ، وما اظنها الا باقية كذلك لآلاف السنين . ان الله يصعب
ان تترك مثل هذه الامور لسنة التطور . لقد كان بومعه ان يقضى
على نواتج الشر في طرفه عين ، ولكنه لحكمة الهية يريد ان يدع
الانسان لنفسه ولتوجيهات عقله الذى يسد منحة الله الكبرى
« ابني الانسان » .

واقبل احد الاباع لاهتا وهو يقول الاسقف :

— معلومة يا سيدى ولكن الامر عاجل هام . لقد وفد رسول
من قبل الاب يميمون لاختارنا انكم بان جميع المقابلات والاجتماعات
الى القصر قد الغيت . ان الامبراطور يرفض مقابلة احد ا .
— ولماذا ؟ ما هو السبب في هذه الاوامر الجديدة ؟
— يقولون ان الامبراطورة قد توفيت فجأة .
فنهضت هيلينا وصعدت من ثملاتها قائلة :
— هيا بنا الى القصر . . هيا بنا فوراً . وكان وجهها شاحيا :
وقد بدا من عينيها يريق الدمع الاكيد .

فتحت أبواب القصر واحدا بعد آخر : أمام السيدة السجود
التكأة على مصاحها السوداء . ولم يجرؤ أحد على احتراض ميلها :
وهي تقدم بخطوات ثابتة في زوايا القصر ودعايزه .

وكانت كلما تخلعت بنسج خطوات ، تخلف عنها من كلن يتبعها
من غيابط الحرم وموظفي القصر . حتى الأسقف أوزيوس وثابته
بأننا آخر من تخلف عنها لتقطع المسافة الباقية إلى غرفة الإمبراطور
بمفردها . أن أحدا منهم لم يجرؤ على الانسحاب من غرفة
الإمبراطور .

وما أن أصبحت أمام باب الغرفة الإمبراطورية ، حتى تلافت
حربنا الحارسين الواقفين أمام الباب ليحولا دون دخول السيدة
الغرفة . فزلعت مصاحها إلى قطعة التقاء الحربتين لتترقى بينهما
إلى أضرار ونظرات ثابتة أمرة ، حلت بالحارسين إلى الاعتدال في
وقفتهما وثادية التحية العسكرية لها ، بعد أن أدركا خطاهما .

ودلفت السيدة إلى الغرفة لتجد رجلا مستلقيا على الفراش
فلوجد بها ، ما أن شعر بقربها حتى هب ناهضا وهو يقول :

- أماء !

الإمبراطور العظيم قسطنطين يعود طفلا يفرح إلى كرامى أماء .

فأمريت إليه تعيله إلى فراشه في رفق وحنان . وضمعت
بيديه ولواحيه يتشبهان بها كما يتشبك الفريق بين يحاول إقلاده .
وسمعتهم يتمتم بكلمات لم تتبينها أو أدرك لها معنى ، لأنه كان
قد فن وجهه في طيات مغطتها . وبعد قليل أدركت أنه يقول لها :

- لقد ظننتها يا والدتي ، ظننتها . . . ظننتها يا أماء !

وأجست بقليلها ينقبض : وبرعدة بارقة تسرى في أوصالها جوار

الآن ، تهيئ لم تخطفه في حديسها . انها دائما تتسهر بالامر قبل
وقومه . انها تحس بكل شيء ويكل ما يدور حولها . بل انها تنيات
بذلك قبل يوم زواجهما . هذا الزواج الذي لم ترض عنه ، فرحت
قبل ان تشرك في مراسمه .

اله وان كان قالها ان تحضر في الوقت المناسب بالنسبة
لكريسيوس ، الا انها حضرت في الوقت المناسب بالنسبة
لقسطنطين . تلك هي الاقدار ، الاقدار التي رتبها الله وجعل لكل
منها حنا . لقد حضرت لتنقذ حفيدها . ولكن الاقدار قد ربت
لها السبب لتحضر ، ولكن لتنقذ ابنها . ولم تعقب بشيء على
ما سمعت . بل راحت تبت يدها على الراس التي اسلمها صاحبها
اليها ووجنت الهوى بين يديها .

وبعد ان استطاع اخيرا ان يتمالك نفسه ويجلس بين يديها ،
تأمل وجهه في حنان الأم الجوزة ، وهالها ما تبشئته فيه من هم
وقم ، خطتها يد لا ترحم ولم تفرق به .

ـ تخبرني بكل شيء يا ولدي . . بكل شيء .

واقترض منه ذلك جهلا كبيرا . . لقد وجد الامبراطورة في
احضان أحد الخدم .

ـ لقد استبد بي الأرق بعد موت كريسيوس . وتوجهت اليها
لاستفسر منها عما اذا كانت واقفة مما أخبرتنى به عنه ، فلقد
صارحتني بأنه حاول معها أمرا تكرأ . . . وألترتنى ضده بأنه وعدها
بان تعيش كملكة عندما تعاقبه في القضاء على ، وتحدثت الي
ولدي بما قاله لي فانكر وانكر مؤكدا كذبها فيما قالت . ولكنني
لم اصدق . لم اصدق لأنني كنت قد سمعت عن اطعامه من قوم
آخرين ، فقلوت هذا بذلك . . ودخلت لأسمع منها ما يريح ذهني
الكثود فوجدتها كما قلت لك : وقطعت العبد الفقير من فوري :
ثم امرت بإعداد حمام ساخن للامبراطورة : حمام ساخن يبلغ
بحراره حد اذابة ذنوبها في مائه المغلي . وهكذا قضت نحبها . .
لها ، لماذا قدر علي ان اتركب كل هذا . . لماذا كان يجيب ان اقتل

ماكسيميان ؟ . ونحن بعد كرسبوس ؟ لم تلوست أخيراً .. لماذا ؟
لماذا يا أماء ؟

كانت هيلينا اتين الموضع . وطابت ولدها بالهدوء . ثم سمعته
يستنرد فقال :

— انه ليخيل الى احيانا اننى لم ارتكب كل هذه الأخطاء ؟ انه
شخص آخر ويد أخرى !

فرأى وجه اليها بين يديها ، وثبتت عينها فى عينه قائلة :

— اذا لم تتحمل مسئولية أفعالك ، قل جاني لك أن تضلع
بمثل الآخر . أن ما فعلته فعلته برادتك ولن تستطيع أن ترجع
فيه . لا تحاول أن تلقى بسبب اليوم على عاتق فرك ، ولا تؤمن إلا
نفسك . ليس أمامك إلا أمر واحد يمكنك أن تفعله .

وتوقفت قليلا قبل أن تواصل حديثها . انه ابنها وفلذة كبدها .
وعليها أن تضغط قلبا على مشاعرها . انه يمر بأسوأ لحظات
حياته كلها . وهذا الرجل الذى يلخخ الشمع من عمره هو
امبراطور العالم الرومانى قاطبة . انه رمز امضى امبراطورية
بأسرها . انه المجد والنصر والعظمة لها . انه الامبراطور الذى
حكم الشرق والغرب ، وواصل رسالة والده وأعاد للمسيحيين
حقونهم وأدميتهم الهلوة . فقالت لى لتزىل عن نفسه ما بها من
رجل .

— لى تسأل من قتل الامبراطورة . وذلك لأنك رئيس الدولة
ودأب الأسرة المالكة ، الذى لا يسأل فقلونا من تصرفاته . وحتى
لو لم تكن فى منصبك هذا ، فإن القانون لا يعاقب من يجد زوجته
فى هذا الوضع ويقتلها . ان الامر قد تجاوز حد المسألة الدينية
من تصرفاتك أو محاولة تهريبها . ان ما وقع منك قد انتهى أمره
وأصبح ماضيا ميلتصق باسمك وشوب أمجادك لى من الترفيع
الذى لا ترحم . وليس أمامك الآن لتروح ضميرك وتظهر نفسك غير
أن تكرم حياتك لخدمة الله وأعلام كلمته فى الأرض ، فتذهب
بجسنادك بسينائك .

لم تستج من الكلام قليلا ، وراحت تستعرض ما قاله لها والدها
عند مولد ابنها ، وما تحقق من ذلك كله على مر الزمن ، الا تلك
النبوءة الخاصة بانها مع ولدها هذا ستبقى الى المنور على شجرة
الحياة . وشجرة الحياة هي صليب مخلص البشرية وضحية ظلم
الانسان لأخيه الانسان . واطرقت برأسها قليلا قبل أن ترقعها
بقائمة :

— يجب ان أثمر على الصليب ، الصليب الحقيقي .

— أماء ، لقد اختفى هذا الصليب عند وفاة المسيح . كيف
تأملين في ...

لقاطعته مبتسمة :

— اننى سامعز عليه يا ولدى . . وكل ما اطالبك به أن تروى
سلطات مطلقة ، وأن تضع تحت تصرفى السفن والرجال والمال
لكل ما يلزم لهذه المهمة .

— انت تستمددين سلطاتك من قوة أعلى . أن كل امكانيات
الامبراطورية تحت أمرك .

— وبذلك ستتمو حسنك هذه كل ما أرتكبت من سيئات في
هذه التاريخ . أما الله فهو وحده الذى يملك المغفرة والمثوبة .

— ٣ —

استقضى فى يد الاب مكاريوس اسقف أورشليم : عندما تلقى
تلك الرسالة الامبراطورية ، التى تعمل اليه تبا وحيل الامبراطورية
الأم الى الاراضى القديمة واعتزامها الانتماء باورشليم . ولها امرة
الامبراطور — بصيغة مهلبة لينة — أن يماون والدته فى مهمتها التى
وسطت من اجلها : ألا وهى تشييد كنيسة على جبل كالفوى والمقدون
على الصليب الحقيقي : الذى صليبه عليه المسيح : الصليب المفقود
هذه اكثر من لشألة عام .

كنيسة اعلى قمة الام . فوق جبل العلاب حيث صليح
المسيح . ان احدا من اورشليم لم يكن ليصرف ابن توجد هذه
القيمة المقدسة على وجه التحديد . ان اورشليم محاطة بعدد من
الجبال والتلال التي يحتمل لاي منها ان يكون جبل كالكاري او جبل
الام والعلاب منذ لثلاثة ايام مضت .

اما عن الصليب الحقيقي فليس ثمة اى امل فى العثور عليه .
فمن اين يبدأ ؟ . ومن يتحرى عن ذلك ؟ .

ان لديه من المهام الكثير ، مما يشغل يومه من شروق الشمس
الى غروبها . او كان يتقصه هذا السبب الجديد من البحث عن شوه
اختفى ولم يظهر له اى اثر منذ ثلاث السنين .

ان عليه ان يواصل تحرياته ويتصل بكل اى شأن فى هذا
الموضوع ، لعله ان يهتدى الى ما يشتر له الطريق . وعليه ايضا ان
يشرف بنفسه على كل هذه الأبحاث ونتائجها حتى لا يشوها شوه
من ادعاء البعض وعدم تمكن المشيرين والباحثين .

وما ان وصلت الامبراطورة الام الى اورشليم حتى قلبها راسا
على عقب . لقد جاءت يصحبها العشرات من الغبواء والباحثين
الذين تفرقوا فى طول البلاد وعرضها متقين باحثين مستجربين .

ولم يصل هؤلاء الا الى كل خير متناقض ومعلومات متعارضة .
وكان هذا هو النتيجة الطبيعية لتعدد مصادر تلك التحريات وبيان
المتطوعين بها . ولم يرض احد ممن سئل من القساوسة وزجالات
الدين ، ان يقول لا ادرى . بل كانوا يحرسون على الادلاء بآية
معلومات مكابرة وحيا فى ارضاء لامبراطورة التي قاربت السادسة
والسبعين وكانت فى نشاط وحيوية رجل الاربعين .

ولكم قضت من الساعات الطوال على متحدرات جبل الزيتون
متقبة باحثة بنفسها ، مصلية متعبدة شائعة . ولقد تمسبت بكثرة
حركاتها فى الكثير من النرج لرجال الأمن فى اورشليم . حتى ان
رئيس البوليس مليشيووس ، توجه لتأيلة الاسقف مكاريوس وقال
له :

— ألا يمكن أن تقع حدا لكل هذا ؟ أتأ لا تأثم القليل . لقد
 حققنا ذمما بكل ذلك . أنها تخرج أثناء الليل متسللة دون أن نحاط
 علما بتحركاتها . أنها تمتد أن مراقبة الحرس لها يبعد بين الناس
 وبين التبسط معها في القول . لقد بدأت أشعر بالخرج والارهاق .
 — أعرف ذلك . وأعرف أننا نمر بفترة استثنائية . أن الأمر
 يزداد تعقيدا وصعوبة ، بكل تلك الأقاويل المتطورية والمراحم البعيدة
 من الحقيقة .

— أما كان من الأوفق يا ميسرى أن تصالحها بحقيقة الأمر .
 حتى تدرك الإمبراطورة الأم أن هذا البحث لن يجدي قليلا . أن
 الجبال المحيطة بأورشليم لا تقل من ثمانية . أن مئات من العمال
 تجري حفرياتها في قمم هذه الجبال ومنحدراتها . ثم إذا سلمنا
 بجذلا بأنها ستهدى إلى مكان هذا الجبل ، فهل مستحسن بعد هذا
 من العثور على الصليب ، أنك لتعلم أكثر منى بأن هذا من الأمور
 المستحيلة .

— من يدري ؟ يؤسفنى أن أصارحك بأنه ليس فى مقدورى
 مساعدتك . أنها قوة خارقة لا يمكن مقاومتها ، وعزيمة من حديد
 لا تلين ، لماذا لا تحاول أنت أن تفهمها بذلك .



لم يبق من الجبال المحيطة بأورشليم إلا جبلان لم تطأهما بعد
 اقدام الإمبراطورة الأم . أحدهما قد اكتسى بالعشب والأزهار ،
 والآخر قد انتشرت في جنباته بقايا معبد متهدم قديم . هذا المعبد
 الذى شيده من مئات السنين الإمبراطور أفريكان . أنه معبد الآلهة
 فينيوس ، معبودة الرومان قديما . ولكن سيمون ، الصبي العاجز
 الذى ارتضته الإمبراطورة دليلا لها ، مسترسلا في حديثه عن هذا
 المعبد ، ولكنه توقف فجأة عنلما لاحظ أن السيدة لا تصفى إليه .
 ووقع بصره إليها ، لوجدها ساكنة في مكانها لا تحرك . تتأمل النمل
 فيقرايه ، وقد كست حبات العرق جبينها . وخيل للصبي أنها
 متمجة أو مريضة ، ولأنها يجهد وراها تصدق النظر فيما أمامها
 بطريقة غير عادية .



وقال بهيلينا وقولها . وطال بها صمتها وتعذبها كيفاً أمامها .
ثم بدأت تتحرك رويداً رويداً عرقية الجبل صعداً ، في اتجاه
قمته حيث توجد خرائب المعبد . وكانت تمشي على خشوع الرهبة
والذكرى ، وقد ملأت أذنيها ألحان أنغام لا تعرف لها مصداً ، ثم
ما حولها من فضاء ومسمد ، ومع كل خطوة من خطواتها ، كانت
تسمع هزم الرعد ، ولرى الأشجار تنحني خائفة ممثلة ،

وهند مشارف الخرائب توقفت ، وقد سحب وجهها ، وقاضت
منه دماء الحياة ، ثم رفعت مصداها في اتجاهها قائلة :
- تلك الخرائب يجب أن تترك اليوم من أسسها !



واحتشد القوم بعد ظهر اليوم التالي يشاهدون رفع بقايا
المعبد وإطلاقه ، وتظهر المكان من كل ما به . وكان من بينهم رجال
الدولة والدين والجيش . وقد توسعت هؤلاء جميعاً الامبراطورة
الأم هيلينا ، وقد تعلقت أنظارها بعملية الحفر التي اعتقت تظهر
القبة من خرائب المعبد . وكان الأسقف مكاريوس يقف الى جانبها ،
لا تزايل عيناه الحفرة التي كانت تزداد عمقا خلال تلك الساعات
الثلاث التي انقضت على وقوعهم في هذا المكان .

انه كان يعرف أن الامبراطور انديان ، وهو المسيحيين اللدود ؟
قد شيد في هذه البقعة معبداً لفينوس منذ أكثر من مائتي عام .
وانه لا يستبعد أن تبلغ كراهية هذا الامبراطور به خطأ يحلو به
لاقامة هذا المعبد ، حتى لا تصبح لهذا المكان فلسيته لدى
المسيحيين . انه لمنطق معقول يكاد يقترب به من الحقيقة . وبينما
هو غارق في تأملاته سمع صيحات الرجال تنصاعد من الحفرة
واحدة تلو أخرى :

- خشب ! - خشب ! - خشب !

ورأي هيلينا مرعدة الاوصل مرعجة ، تسقط على ركبتيها
واقعة خائفة . وخيم السكون على المكان ، وسكنت الحياة فيه .
وتعلقت الابصار بالحفرة المقدسة ، شاخصة محمقة مترقبة .

وحذا الأسقف مكاريوس حذو الإمبراطورة ، وركع جميع
الحاضرين عندما صاحدا الرجال يرفعون إلى املا ثلاثة صليبان
يخشية .

وحاولت هيلينا أن تنهض واقفة ، فلم تستطع . واضطر
مكاريوس أن يعاونها بمساعدة الدليل الصبي سيمون . وقدمت
مراجعة إلى حيث وقعت تنحى باكياً أمام الصليبان الثلاثة . ولمح
مكاريوس قريباً لحد العمال ورقة من أوراق الكتابة بها بقايا حروف
عبرية وإغريقية ولاتينية . وأدرك من ذلك أن أحد هذه الصليبان
هو الصليب الحقيقي . ولكن أيهم هو هذا الصليب المنشود ؟

وقبل أن ينتهي من تفكيره في ذلك ، أبصر بهيلينا تحتضن
أحد الصليبان كما تحتضن الأم وليدها . لم رآها تعبض على كتب
الصبي العاجز سيجيون وقدسه حتى يلتصق بفرومه المشلول
بالصليب . وشعر بلمحة من النار تسرى في ذلعه العاجز حملته
أن يتعد عنه في خفة القادر على الحركة رافعا يده في الهواء .
وتأمل الجمع الحاشد ذلك المشهد ، وأيقنوا أن هذا الصليب بالذات
هو الصليب الحقيقي . الصليب الذي أعاد الحركة إلى ذراع الصبي
الأشل . وببطل كل من مكاريوس وهيلينا النظرات ، وأضحى
الأسقف ليقبل قائم الصليب .

وحمل مكاريوس الصليب بمساعدة اثنين من القساوسة ، وقدم
الركب العائد إلى اورشليم ، وهم يرددون ترانيم المسيحية في فرحة
المتبر بعد أن عثروا على ضالتهم .

== ٤ ==

== لقد استسلمت كنوم ==

تمالها قسطنطين في صوت ثقافت

== حطيني بكل شيء .. بكل شيء ==

== ١٥٦ ==

وانجبت الوصيقة ثيرنتيا بصرها مرة اخرى نحو الشرقة الصغيرة التي كانت تجلس بها الامباطورة على مقعدنا الكبير مستسلمة للنوم . وكان وجهها اقرب ما يكون الى وجه طفل صغير حديث الولادة ، لا يعنى مما يحيط به شيئا .

وجلس كل من الامباطور والاسقف اوزيوس بنمتان باهتمام بالغ لما تسرده عليهما ثيرنتيا في صوت هانس خائض ، بعد ان اطلعا على التقرير المفصل الذي بعث به الاسقف مكاريوس عن القصة بخلافها . وذلك لان الامباطورة لم تكن في حال تسمح بالحديث معها .

— لقد عثروا على المسامر القديمة ايضا ، وعلى ربح . لعله الربح الذي طعن به المسيح في جنبه ، وترك السيد قطعة كبيرة من الصليب للاسقف مكاريوس ليقيم لها كنيسة خاصة ، بعد ان وضعت في مقلمن جميل من الفضة . ولقد فقد منا احد المسامير الثلاثة اثناء عودتنا بطريق البحر . ولم نستطع ان تبين السر في اختفائه . اما المساميران الاخران ، فقد احتفظت بهما الامباطورة معها . ولقد تعرضنا امامها هوجاء في طريق عودتنا حتى خيل لينا ان اليم سيبتلعنا . ولكن العاصفة سكنت فجأة ، واستمر البحر هادئا .

واوما الاسقف اوزيوس برأيه . لقد سررت في روما اشاعة بان الامباطورة قد اقلت باحد المسامر الثلاثة في البحر عندما اشتدت العاصفة ، فهذهت العاصفة فجأة واستطردت الوصيقة قائلة :

— واشتدت وطأة المرض على الامباطورة بمجرد مقادرتنا السفينة عند هودتنا . ولكنها اصرت على ان تواصل السفر الى روما . واعتقد انها كانت تريد مواصلة طريقها بعد ذلك الى برباطيا .

فقال اوزيوس معلقا على ذلك :

— انها اعطت امرأة اتيجيها برباطيا .

واستأنفت في رثيا حديثها ذلك :

— وأمرني بعد الظهور برفع التظلم من القنح الذهبي الذي كان
محملة .

وأمرع أوزيوس يستقر منها :

— ومكنا كان به .

— حفنة من التراب الأبيض اللون . . . واحت تامله قليلا ، وأمتنى
أنها كانت تصلى أثناء ذلك . ثم أمسكت بالقنح ورفعتة إلى فمها
وأفترقت ما فيه في جوفها .

وحملني قسطنطين في وجه أوزيوس دعشا متسائلا . لاوما
الاستف برأسه إيمنة المرف يسر هذا التصرف .

ونجاة تامل لآلتهم السيدة الجليلة على مقعدها بالشرقة :
ولم يكن هناك ما يسترعي انتباههم أو يستثير فضولهم . ولكنهم
نهضوا سرعين إلى حيث تضطجع الأميرة في مقعدها : بعد
أن ساورهم القلق عليها لطولاً مكنوها .

وكانت حينها مفتوحة : تحدقان النظر في شيء أملها : ولا
لاكتسب وجهها بتمايز الدعة والحشان ، وعكست حينها علامات
للرضا والمعية .

كأبجت الظاهر صوب الناحية الأخرى من الشركة لتقع على
الصلبي الغنم وكذا المكنت عليه أشعة الشمس الهائلة في آخر
الفردج . وبذت وكأنها تقيده بتخيلها العنبر في لون الدعة
السائلة بينيات الخشب الحى .

والسنة .

الملك الناصر الملك الناصر

الدار القومية للطباعة والنشر

مركز لاهوت عام للثقافة

في العالم العربي
من القاهرة

يصدر عنها

روايات عالمية الكتاب المأثور

مناهج كوكبية من الشرق والغرب كتب سياسية

كتب قومية في المشرق

اختراعات الجدي اختراعات للعلماء

دراسات نقدية رسائل مائة

مكتبات الدار

نيويورك

لندن

الجزائر

بيروت

طرابلس

بغداد

أحمد طوم

الاسكندرية

القاهرة

مجلة الادب والادب

مجلة نوار الوطن

ARAB
OBSERVER

LIBERATED
ARAB

Le Scribe
ARAB GROUP

Le Scribe
ARAB GROUP

Le Scribe
ARAB GROUP

Le Scribe
ARAB GROUP

14
4

Bibliotheca Alexandrina



0540434

